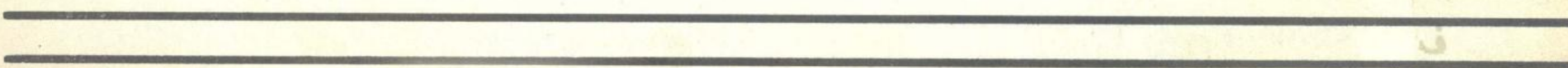


المشقافة

مجلة فكرية تصدر في دمشق

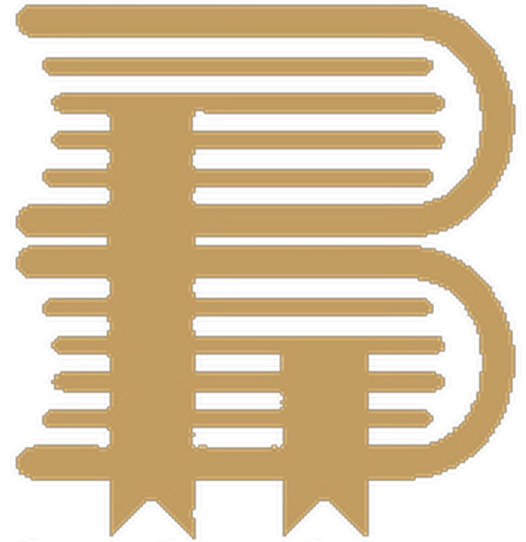


الشفاعة

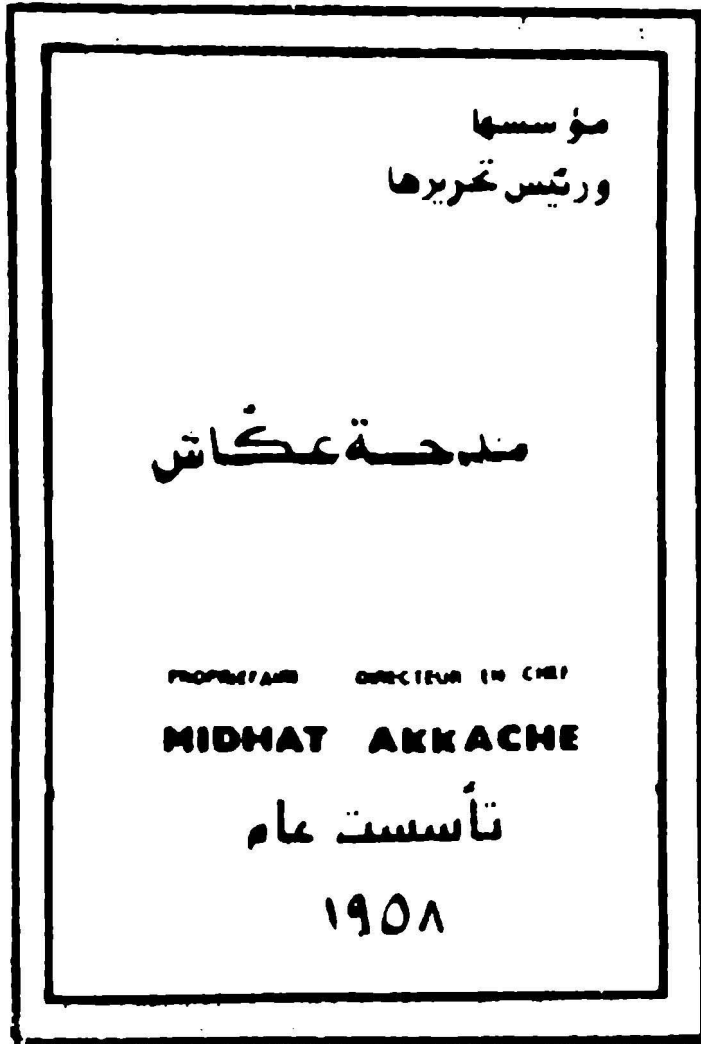
AL SAKAFA

— ادبية فكرية جامعة تصدر شهريا —

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net
رابط بديل < mktba.net



حزيران ١٩٨٧

Damas R.A.S.
B.P. 2570 Tel. 229984

دمشق سورية ص.ب.: ٢٥٧٠ - هاتف: ٢٢٩٩٨٤

مكتويات العدد

٣	محمد خضر كوسا	سيكولوجية السخرية في ادب الجاحظ
٩	احمد بوبس	التجديد في الشعر العربي
١٥	كريستيان كوتار	الرهينة قصة مترجمة للكاتبة الاجنبية : كريس
	ترجمة : عز الدين وهدان	
٢٢	زكي قنصل	الشأر المقدس شعر
٢٤	ترجمة : هدى الكينالي	مدارس المستقبل
٣٠	الياس غالي	نسخ رسالة الغدوان
٣٧	عيسى موسى	أشواق قصة
٤٠	احمد علي حسن	عرض وتذكر شعر
٤٣	اكرم قنيس	عصر الشهادة العربية وشعرنا العربي المعاصر
٥٠	سعيد ابو الحسن	نيران على القمم (الحلقة ٣١)
٥٩	جيكوسلاف كاليب	الصخرة البيضاء قصة
	ترجمة : محمد الخطيب	

سيكولوجية السخرية في أدب الجاحظ

محمد خضر الكوسا

على صاحبها ، وانه لو اكتشفها ووعاها
لكفكف من اندفاعه في ما اندفع اليه
ولعدل من سلوكه .

وقد ضل قول الجاحظ هذا كثيرا
من الباحثين ، ولا سيما من المحدثين
فجعلوه اساسا لتعليلاتهم لهذه الظاهرة
البارزة في كتابات الجاحظ .

يقول الاب فيكتور شلحت اليسوعي
في كتابه " النزعة الكلامية في اسلوب
الجاحظ " (وهكذا يتضح لنا ان الدعابة
والبطالة ، كاستطراد او الاطناس ،
ليست عند الجاحظ الا اسلوبا من اساليبه
الفنية يتكيف به مع حال قارئه ، ليؤمن
لكلامه البلاغة .. وكان يهدف ايضا الى
مصلحة قارئه ليزيده ثقافة ويضمن له
الحصول على ما يحتاج اليه من العلم
والمعرفة) .

ويقول عبد الحكيم بليغ في
كتاب " النثر الفني واثر الجاحظ فيه "
ان اما عثمان كان (يقصد الترويح عن
النفس المكدودة ببعض الهزل حتى لاتسأم
من ذلك الجد المتواصل) ، كما ان
تعليل شارل بلا القائل ان الجاحظ
(اراد ان يقاوم اثناء مكثه في بغداد
تيارا عاما من الجد والكتابة والصرامة)
تعليل بعيد عن الحقيقة شأن التعليلات
السابقة .

فما حقيقة البواعث النفسية
التي قد تفسر هذه الظاهرة تفسيراً أدنى
الى الوضوح ، والتي تكمن وراء هذا
الميل الحاد عند الجاحظ الى السخرية ؟
ان قراءة سريعة لسيرة ابي
عثمان كافية للكشف عن تلك البواعث ،
نسبه ونشأته ويطمه وقبحه وحتى لقبه .
لقد عاش الجاحظ في بيئة مقياس
التفاضل فيها هو النسب ، فمكانة الفرد
في المجتمع يحددها نسبه واسرته ، اما
علمه وأدبه وفضله فتأتي في المقام
الثاني او قد لا يكون لها قيمة على

نريد بسيكولوجية السخرية هنا ،
الكشف عن الدوافع او البواعث النفسية
التي وجهت الجاحظ الى السخرية والمبالغة
فيها والاكثار منها ، حتى لكان السخر
مزاج ركب فيه او غريزة فطر عليها .

وان الباحث ليحد نفسه مضطرا
الى الوقوف عند هذه الكثرة غير العادية
من السخريات التي نثرها الجاحظ في ما
وصل اليها من كتبه وأخباره والتسي
تناولت مختلف طبقات المجتمع وفئاته ،
فلم يسلم منها احد ، ولا سيما المثقفون
والمفكرون ، ومنهم من كان من اعلام عصره
في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، كالنظام
وابي الهذيل العلاف - امامي المعتزلة -
والنابيهون في زمنه على الاجمال .

بل لقد تجاوزت سخرياته أعلام
عصره الى اعلام العصور الغابرة ، فسخر
من ارسطو - بحق - وهو من اعظم الفلاسفة
في تاريخ الفكر الانساني كله .

ان السخرية تتضمن - منطقيا -
معنى الاستعلاء على المسخور منه ،
والبراءة مما فيه من نقص او عيب او
تشوه ، وان الذي يسخر من مجتمعه كله
بمختلف فئاته وطبقاته ، حقيق بأن يكون
هو نفسه موضوعا للبحث النفسي الهادف
الى الكشف عن البواعث النفسية التي
حملته على ان يرى الكمال في نفسه
والنقص في الآخرين .

وليس من شك في ان القسول
المشهور وهو ان الجاحظ كان بطبعه ميالا
الى السخر والهزل والفكاهة وانه انما
كان يفعل ذلك ترويحاً عن قارئه كتب
الضخمة ، ودفعاً للسأم والملل ، واستجلاباً
للنشاط الذهني ، والجلد على مواصلة
القراءة ، كما يزعم هو نفسه ، انما
هو قول مظل عن الحقيقة التي تكمن
وراء تلك السخريات ، والتي غفل عنها
صاحبها ، اذ المعروف المقرر في علم
النفس ان البواعث النفسية شديدة الخفاء

الاطلاق .

ولتوضيح قيمة النسب في المجتمع العربي في القرن الثاني للهجرة ، يكفي ان نورد لهذين الخبرين لنعلم مبلغ حرص العرب على الانساب وتفاخرهم بهما .

روى الجاحظ قال : قلت لأبي الربيع الغنوي : يا ابا الربيع من خير الخلق ؟ فقال : الناس والله .

فقلت : ومن خير الناس ؟ فقال العرب والله .

فقلت : وفمن خير العرب ؟ فقال مضر والله .

فقلت : فممن خير مضر ؟ فقال قيس والله .

فقلت : فممن خير قيس ؟ فقال يعصر والله .

فقلت : فممن خير يعصر ؟ فقال غني والله .

فقلت : فممن خير غني ؟ فقال المخاطب لك والله .

فقلت : فأنت خير الناس ؟ فقال : نعم اي والله .

فقلت : أيسرك ان تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟ فقال : لا والله .

فقلت : ولك ألف دينار ؟ فقال : لا والله .

فقلت : فألف دينار ؟ فقال : لا والله .

فقلت : ولك الجنة ؟ فأطرق برأسه ثم قال على الا تلومني .

وروى الجاحظ ايضا قال : قلت لعبيد الكلابي : ايسرك ان تكون هجيناً ولك ألف دينار ؟ فقال : لا احب اللوم بشيء .

فقلت : ان امير المؤمنين - يعني المعتصم ابن امة .

فقال : اخزى الله من امة .

فقلت : نبيا الله اسمعيل ومحمد ابنا امة .

فقال : لا يقول هذا الا قدرتي .

فقلت : وما القدرتي ؟ فقال : لأدري الا انه رجل سوء .

على ان في تاريخ الاسلام حادثة مشهورة موثقة لا يرقى الشك اليها ، فقد اختار النبي (ص) ابنة عمته زينب - وهي هاشمية - زوجا لابنه بالتبني زيد بن حارثة ، فأبت اباء شديدا ان تتزوج من دعي ولم تدعن الا بعد ان نزل قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكرهن لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) .

فقبلت زينب على مضر ، وتم الزواج ، الا انها ظلت تعاشر زيدا على كره منها واباء ونفور ، وهو يشكو ذلك الى النبي

والنبي يقول له في كل مرة : امسك عليك زوجك حتى نزلت الآية التي تحرم التبني وهي الآية ٣٧ من سورة الاحزاب . هكذا كان شأن النسب في المجتمع الذي عاش فيه الجاحظ ، فلنبحث الان عن نسبه وأصله .

لقد تضاربت الاراء او الروايات حول هذا الموضوع فمنها ما يفيد انه كناني ليثي ومنها ما يؤكد انه مولى ابي القلمس عمرو بن قلع الكناني و ان جده اسود يقال له فزارة كان جمالا عند ابن قلع .

ومن المعلوم ان اسم الجاحظ (عمرو) وان اسم ابيه (بحر) ولكننا لا نعلم شيئا عن (بحر) هذا ، كما اننا لا نعلم شيئا عن جده سوى انه كان اسود يقال له فزارة اي انه كان عبدا .

ومما يرجح صحة الرواية الثانية شهادة خال ام الجاحظ يموت بن مزرع ، (وكان جد الجاحظ اسود اللون يقال له فزارة جمالا لعمرو بن قلع الكناني) . ومما يرجح صحتها ايضا ان الجاحظ نفسه كان اسود اللون ، كما جاء في ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي .

ونحن نعلم ان كان من عبادة الشعراء والبلغاء العرب التفاخر بأنسابهم والشعر الجاهلي والاموي والعباسي حافل بالفخر بالآباء والاجداد ، فاذا سكت الشاعر او البليغ عن ذكر نسبه واغفل الحديث عن ابيه وجده وفخر بغير ذلك من دواعي الفخر ، علما انه كان مجهول النسب او مغموزه او وضعه .

وهذا المتنبى اشهر شعراء العربية قاطبة كان يتحاشى ذكر ابيه حتي اننا لا نجد في ديوانه كلمة اية اشارة الى هذا الاب الذي قيل انه كان سقيا في الكوفة يبيع الماء .

وكذلك نجد الجاحظ ، فعلى كثرة ما كتب لا نعثر في ما كتبه بشيء عن نسبه او عن اسرته وعن ابيه وجده ، وهذا يرجح ان لم يؤكد انه كان من اسيرة وضيفة ، وان اباه كان - كما قدمنا - مولى جمالا عند ابن قلع ، وليس في هذا ما يدعو الى الفخر بل فيه كل ما يشعر بالالام والمرارة والانسحاق .

نشأ الجاحظ اذا في اسيرة وضيفة وهي الى ذلك اسيرة فقيرة ، وهذا عامل آخر من عوامل الاحساس بالقهر والظلم الاجتماعي في تلك البيئة التي عاش فيها .

فقد كان في صباه يبيع الخبز

والسّمك وكفى بذلك دليلا على الفقر الذي كانت الاسرة تعاني منه ، فلم يتح له التفرغ لطلب العلم في صباه كما يفعل ابناء الاسر الميسورة ، وتحدثنا الروايات انه كان (يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للمطالعة) كما جاء في معجم الادباء لياقوت .

وهذا يدل على امرين :

الاول : انه كان يطمح الى الانسلاخ عن طبيعته الاجتماعية الى طبقة اعلى ولا سبيل امامه غير العلم يشق به طريقه صعدا ويخترق به الحواجز الاجتماعية التي كانت تفصل بين الطبقات .

الثاني : انه كان مدفوعا الى ذلك بباعث نفسي هو التعويض عن حرمانه من وجاهة النسب ورفعته ، وحرمانه من المال الذي اخذ منذ القرن الثالث للهجرة يحل تدريجيا محل الاحساب والانساب ، ويفتح لاصحابه ابواب القصور والبيوتات العريقة الكريمة كما نجده في شعر ابن الرومي - وهو يتحدث عن التجار والشرط الذين حصلوا على ما يتمنون بالمال - حيث يقول :

وتجار مثل البهائم فـازوا

بالمنى في النفوس والاحباب

شرط خولوا عقائل بيضا

لا باحسابهم بلا الاكساب

وثالثة : الاثافي في شعوره بالحرمان والمرارة والقهر ، يتمه - توفي ابوه وهو طفل - وما كان عليه من قبح ودمائة فقد كان (مشوه الخلق جاحظ العينين) وكان (قصير القامة دميم الوجه يضرب ببشاعته المثل) حتى لقد قال فيه احد الشعراء كما جاء في الفرق بين الفرق للبغدادى :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا

ما كان الا دون قبح الجاحظ

وحسبنا هذا البيت دليلا على الصورة المتناهية في البشاعة التي كان عليها .

على ان صاحب الوفيات يروي عن الجاحظ نفسه قوله (ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني) .

وجاء في سرح العيون لابن نباته عن الجاحظ قوله (اتتني امرأة وانا على باب داري فقالت : لي اليك حاجة وانا اريد ان تمشي معي . فقمتم معها الى ان اتت بي الى صائغ يهودي فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال : انها اتت الي بفص وامرتني ان انقش عليه صورة شيطان ، فقلت : يا

سيدتي ما رأيت الشيطان ، فأنت بك) . وكما لازمته بشاعته المفرطة لازمه لقبه (الجاحظ) ولصق به فكان علما عليه ، وتجاهل الناس اسمه (عمرو) ، واغفلوه ، وكان ذلك يؤلمه ويحز في نفسه ، ويشعره شعورا عميقا بقسوة المجتمع وظلم الحياة ، ولهذا كان يجهد نفسه في ان يقرر في اذهان الناس ، ان اسمه (عمرو) وانه يحب ان يدعى بهذا الاسم وانه ارشق الاسماء واخفها واظرفها واسهلها مخرجا ، وكان يسميه الاسم المظلوم لانهم الصقوا به الواو التي ليست من جنسه ولا فيه دليل عليها ولا اشارة اليها . وكان يقول ان هذا الاسم لم يقع في الجاهلية والاسلام الا على فارس مذكور او ملك مشهور او سيد مطاع ، او رئيس متبوع ، امثال (عمرو بن هاشم) جد النبي (ص) وعمرو بن سعيد الاكبر وعمرو بن العاص وعمرو بن معد يكرب) . ولكن جهوده ذهبت عبثا ولصق به هذا اللقب الى الابد .

جميع هذه العوامل التي ذكرناها خليفة بان يكون لها اثرها العميق المولم في نفس ذلك الصبي الذي القاه ابواه في مجتمع لا مكان فيه - ككل المجتمعات - الا للقوي الغني الوسيم او لمن حاز - على الاقل - صفة من هذه الصفات ، ويسحق فيه الضعيف الفقير الدميم سحقا .

فاذا عرفنا ان السلوك (يتحدد في السنوات الاولى للطفل) وان الشعور بالدونية والنقص (يدفع الى التعويض بشكل تلقائي بل وفيزيولوجي) كما يقرر علماء النفس ، وان اسباب الشعور بالسفلية والنقص قد اكتملت عند الجاحظ في وجهه وبدنه ولونه ووضع الاجتماعي ، ابيه وجده ونشأته وفقره ولقبه ، وان سببا واحدا منها كاف لخلق ذلك الشعور فكيف اذا اجتمعت كلها . وان هذه الاسباب تكون - كما يقول علماء النفس - واقعية في الحالات العضوية او الوظيفية . وقد تنشأ عن وضعية اجتماعية : ولد فقير في بيئة تتطلب منه وعاء اقتصاديا او طبقيًا او عائليا معينًا) .

اذا عرفنا ذلك ، انكشف لنا السر في امور كثيرة في حياة الجاحظ ، انكشف لنا السر في اقباله الشديد على القراءة والسرف في اكتراشه دكاكين الوراقين ، والسرف في تلك الثقافة الموسوعية الشاملة التي امتلكها ، والسرف في

بقائه طول حياته عزبا لم يتزوج، والسر في انتقاله من البصرة الى بغداد ، وانتحاله مذهب الاعتزال ، واستعفائه من رئاسة ديوان الرسائل ، ورغبته الجامعة في ان يحيا - لو استطاع - حياة عقلية صرفة ، واخيرا السرف في لجوئه الى السخرية التي لم يكد يسلم منها احد .

ان وراء هذه السيرة كلها باعث نفسي عذب هو (التعويض) بالمفهوم الذي حدده وشرحه (الفريد ادلر) التعويض المتولد عن شعوره بالدونية والنقص والذي كان مدفوعا اليه بشكل تلقائي بل وفيزيولوجي .

وليس الجاحظ بدعا بين النابهين في اندفاعه الشديد الى التعويض حلا لمشاكله التي كان يواجهها ، وتخفيفا لآلامه النفسية التي كان يعاني منها ، فان الكثيرين من امثاله ممن اصابوا بما اصاب به او بعض ما اصاب به ، قد فعلوا الشيء نفسه ، اي انهم خاضوا معركة التعويض بدافع لا يقاوم هو الام الشعور بالدونية والنقص التي تنهش القلوب والصدور .

يقول (ادلر) : (اننا نقدر ان نضع مبدأ عاما ينص على ان جميع الاطفال ذوي الاعضاء غير العادية يشتهون في عراك مبكر مع الحياة . . ولا تلبث ان تتولد في نفوسهم رغبات التعويض والملل ، وميل للقوة غالبا ما يخفونه ويفتشون خفية وسرا لكي يضعوه موضع التنفيذ) ومن خير الامثلة على ذلك ، الفيلسوف الالماني المشهور (عمانوئيل كانط) الذي كان ذا جسم قميء وقامة قصيرة وبرود جنسي فانصرف بكلية الى الحياة العقلية وبالغ في التعويض - وسرى ان الجاحظ فعل الشيء نفسه - حتى بلغ (حد القساوة المفرطة والفظاظة الوحشية على عواطف الانسان وميوليه ، في فلسفته الاخلاقية ، فاهتم بتقوية الارادة لترد عنه غائلة الاحساس بالدونية وتقضي على مشاعره الداخلية فآله الواجب وقدسه لنسيان نفسه وتشويهه الجسماني) كما يقول الدكتور علي زيعور .

ولم يتزوج كانط لانه كان يرى نقصه ونفسه في الآخرين ، وعوض عن ذلك بتكريس وقته للكتب والقراءة .

وقد يكون الجاحظ لم يتزوج للسبب نفسه هروبا من منظر وجهه الكريه كلما نظر الى وجه زوجه ، ورب قائل يقول : ان الجاحظ كان يتسرى بالجواني ، وردنا

عليه ان التسري غير الزواج . ان رجحان صحة نظرية التعويض هذه تؤيده شواهد كثيرة ، فالاديبي والمفكر الالماني نيتشه كان يعاني من امراض عدة ، وكان ضعيفا مشلولا لم تفارقه الالام الجسدية طوال حياته ، فثار على العجزة والبسطاء من الناس وعلى كل من يقف الى جانبهم ، فهاجم سقراط واپيقور وافلاطون وكانط وشوبنهاور وصب نقمته على المسيحية وسماها دين الضعفاء اذ هي تقوم على عواطف الشفقة والاحسان والرافة وغير ذلك من العواطف التي يصفها بالذليلة ، والف كتابه (ارادة القوة) ودعا الى ابيادة الضعفاء واختيار نسل ممتاز .

وقد اظهر علم النفس المرضي ان المصابين بالشلل مثلا يظهرون تكبرا جنونيا ، وهذا ما يفسر سلوك نيتشه الذي وصفناه ، كما يفسر تلك الارادة ، الجبارة والقدرة العقلية الخارقة والجلد المتواصل على الكتابة عند الجاحظ وهو مريض يعاني الالام جسدية مبرحة ، فقد الف كتاب الحيوان وهو مفلوج ، والدليل على ذلك قوله (وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ادل ذلك العلة الشديدة) . والف كتاب البخلاء وهو مفلوج ايضا وصرح بذلك في حوار مع محفوظ النقاش حين قال له هذا (يا ابا عثمان . . انت رجل طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفا . .)

وألف كتاب البيان والتبيين بعد فراغه من كتاب الحيوان ، وقبيل وفاته بقليل يدل على ذلك قوله فيه (كانت العادة في كتب الحيوان ان اجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الاعراب ونوادير الاشياء لما ذكرت من اعجابك بذلك فاحبت ان يكون حظ هذا الكتاب من ذلك اوفر ان شاء الله تعالى) .

وهذه الكتب الثلاثة اعظم كتبه واشهرها واضخمها ولا سيما كتاب الحيوان على ان (الفريد ادلر) نفسه كان مريضا مشوه الجسم ، والكساح الذي اصاب به في شبابه وضعف بنيته اضعفنا على جسمه شكلا مشوها ولذلك كان لا هم له الا البحث عن علاج لشفاء هذه النفس المتألمة من متطلبات التعويض التي تفوق قدرة الجسد المتواضعة ، وللقضاء على الخوف من فقدان احترام المجتمع ، وكان سعيه يهدف الى اشعار الناس

بأهميته وانه شيء ذو قيمة .
وهذا يفسر لنا قدرته الكبيرة
على العمل والانتاج ، مع انه صاحب
تكوين جسدي ضعيف ، كل ذلك (تعويض)
اي انتقال من النقيض الى النقيض
تحدثه الارادة .

والارادة عند (ادلر) لا تمثل شيئا
غير الميل الى الانتقال من شعور بعدم
الاكتفاء الى شعور بالاكتفاء) .

وقد رأينا كيف استوفى الجاحظ
جميع اسباب التعويض : نسب وضع واسرة
فقيرة وبشاعة مخيفة ولون اسود ولقنب
مقيت وقامة قصيرة ، اي كل ما يشعر
بالدونية ويولد الاحساس الحاد بالنقص
ولذلك كان هدفه الاول ان يشعر الناس
بقيمته .

يقول (ادلر) (الدافع الاول
في الحياة ، وغاية النشاط الانساني ،
ارادة القوة وحب السيطرة او الرغبة
في ان نشعر الناس بقيمتنا) .

فحصل ثقاقة موسوعية ، ومال الى
ان يحيا حياة عقلية ، ووافق ميله هذا
ما كان عليه المعتزلة من تقديم العقل
وتحكيمة في كل شيء ، فانضم اليهم ،
واخذت مؤلفاته تتلاحق وارتفعت مكانته ،
وعلت منزلته عند الخاصة والعامة ،
وتدفقت عليه الاموال ، ولكن الامانة
لم تهدأ ولم تسكت ، وذلك انه اذا
قد استطاع ان يطرد الفقر ويرتفع عن
الطبقة الاجتماعية الدنيا التي كان
فيها ، فان قبحة ولقبه ظلا ممسكين
بخناقه في نومه ويقظته تفتك آلامهما
بنفسه ، وكلما الحت عليه تلك الالام ،
اشتد الحاحه في اثبات ذاته واعطاء
نفسه قدرا فوق اقدار الناس .

ومن هنا ، كانت الرغبة
العنيفة عنده في السخرية تخفيفا لتلك
الالام ، وشفاء لما في نفسه من طريقها ،
وليس من شك في ان الجاحظ قد
نجح كل النجاح في تحقيق التعويض
الضروري لاقامة التوازن النفسي من غير
طريق السخرية ، وبعبارة اخرى ، لو
حذفنا السخر من اعمال الجاحظ ، لكان
في هذه الاعمال الكفاية وما فوق الكفاية
لتحقيق الرضا النفسي والتعويض بالمفهوم
الذي شرحناه .

ولكن التعويض انواع وليس نوعا
واحدا . فهناك :

اولا : التعويض الايجابي وهو ما يؤدي
الى النجاح حيث يبلغ الفرد ما رنا
اليه للتغلب على شعوره بالالام .

ثانيا : التعويض المبالغ فيه (فوق
تعويض) حيث يبذل الجهد الحد الاقصى
المستطاع بل وحتى ما فوق الحد المستطاع
وقد حقق الجاحظ هذين النوعين
من التعويض مع استثناء السخرية كما
سبقت الاشارة .

ثالثا : التعويض الخفي وهو الميل الى
تهميش الآخرين وتنقص حسناتهم ، او
تفوقهم .

وهذا النوع الاخير ، أي ، التعويض
الخفي ، هو الذي يعيننا الان ، لانه
هو الذي يلقي الضوء على الاسباب
العميقة للسخرية في نفس الجاحظ .

ان السخرية في جوهرها استعلاء
على الآخرين فيه معنى النكاية والتحقير
ولا يتجلى التعويض في اكثر مظاهره حدة
الا في هذا الاستعلاء على الناس ولا سيما
على النابهين واصحاب المكانة على
الاجمال .

فاذا رجعنا الى سخريات الجاحظ
وجدنا انه لا يستعلي على اشخاص معينين ،
معدودين ، او على فئة دون فئة ، وانما
يستعلي على مجتمعه كله بمختلف فئاته
وطبقاته بل على الخليفة نفسه .

فلنعرض الان لمظاهر هذا التعويض
الخفي في سخريات الجاحظ .

ففي (رسالة التربيع والتدوير) نجده
يهشم احمد بن عبد الوهاب ويحطمه تحطيمًا
يهشمه سخرية في مثل قوله (.. ولو لم
يكن لحسن وجهك الا انه قد سهل في العيون
تسهيلا ، وحبب الى القلوب تحبيبا ، وقرب
الى النفوس تقريبا ، حتى امتزج بالارواح
وخالط الدماء وجرى في العروق ، وتمشى
في العظام ، بحيث لا يبلغه السم ولا
الوهم ، ولا السرور الاديد ولا السراب ،
الرقيق ، لكان في ذلك المزية الظاهرة
والفضيلة المبينة) .

وقوله (.. وكيف وقد اصبحت وما على
ظهرها خود الا وهي تعثر باسمك ولا قينة
الا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة الا وهي
تشكو تباريح حبك)

وقوله يصف وجهه (.. هو احسن من القمر
واضوا من الشمس) وقوله (وانت ابدا
قمر بدر) الى اخر ما في الرسالة
من امثال ذلك .

وحسبنا ان نشير الى بعض
السخريات التي لا بد منها لاثبات التعويض
الخفي - والتي يبرز فيها بروزا حادا
استعلاؤه على اعلام كبار في الفكر والفقه
والسياسة .

فقد سخر من ارسطو سخرية موجعة ،

بل جعل احد صيادي السمك يسخر منـه ،
واستعلى عليه بان اقام نفسه منه مقام
الاستاذ .

وسخر من النظام وهشمه تهشيمًا
وهو استاذ وشيخ المعتزلة واكبر علماء
الكلام في عصره .

وسخر من ابي الهذيل العلاف ،
وهو ايضا شيخ المعتزلة ومن اكبر فلاسفة
الاسلام وعلماء الكلام .

وسخر من الامام ابي حنيفة ووصمه
بالجهل بالنعو والجهل بحياة الناس،
الواقعية ، ولا يقوم فقه الا عليهما .

وسخر من محمد بن الجهم وهو
والي الاهواز وعالم من سراة العلماء في
القرنين الثاني والثالث ، وحطمه تحطيمًا
فلم يترك نقيصة ولا عارا ولا سبة ولا عيبا
من المعاييب ولا رذيلة من الرذائل الا
وصمه بها ونسبه اليها .

وقد بلغ (التعويض الخفي) عند
الجاحظ ذروته حين طمح الى ان يزيح
ال خليفة عن كرسيه ويتربع هو محله .

سأله احدهم : يا ابا عثمان كيف
حالك ؟ فقال سألتني عن الجملة فاسمعها
مني واحدا واحدا ، حالي ان الوزير
يتكلم ، برأيي وينفذ امري ، ويواتر
ال خليفة الصلات الي ، وآكل من لحم
ال طير اسمنها ، والبس من الثياب
افخرها ، واجلس على أليسن الطبري
واتكئ على هذا الريش ثم اصبر على
هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له
الرجل :

الفرج ما انت فيه ، قال : بل احب ان
تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبد
الملك بأمرى ويختلف الي فهذا هو الفرج
وهذا - ولا شك - هو ما يسمونه
في علم النفس (جنون العظمة) أو (هذاء

العظمة) وللجاحظ في هذا الهذاء
اضرار كثيرون ممن اصابوا بما اصاب به
او بعض ما اصاب به من اسباب الشعور
(بالدونية) التي دفعتهم الى التعويض
الخفي ، وكلهم امثلة صالحة للاستشهاد
بها على تأكيد ما ذهبنا اليه ، نذكر
منهم بشار بن برد و ابا العلاء والـمتنبي
من القدماء وطه حسين من المحدثين ،
وقد زعم هذا الاخير - وهو يفاخر بدقّة
معرفته بديكارت وفلسفته ومنهجه - انه
يعرفه معرفة لو اعلنها في فرنسـا
(لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها
الكوليج دي فرانس ولاعلن لها المجتمع
العلمي الفرنسي افلاسه) حسبما وصف
نفسه في مقال له في جريدة السياسة
الاسبوعية ٨ مايو ١٩٢٦ .

وهذا هو بعينه (اهذاء العظمة)
الذي رأيناه عند الجاحظ الذي تحولت
ارادة التعويض عنده الى لون متـن
البرجسية تسمية ب (النرجسية الفكرية)
وتتجلى في كثير مما كتب ولا سيما في
مقدرته البيانية والجدلية التي تشبه
السوفسطائيين ، فهو يمدح الشيء ويذمه
اذ يضع رسالة في مدح العلوم ورسالة في
ذمها وكذلك في ذم الوراقين ومدحهم الخ
وتصور ابلغ تصوير كم كان مؤلما ذلك
الشعور الشديد الوطأة الذي يعذب نفسه
والذي يأتيه مما ذكرنا من اسباب وفي
طليعتها بشاعة الوجه ، فيهرب منه الى
اجواء فسيحة في عالم المنطق والفكر
والعقل ، ليجد فيها شيئا من العزاء
والراحة ، فيتعلق بها تعلق العشيق
والافتتان .

محمد خضر الكوسا

التجديد في الشعر العربي

بقلم: أحمد بوبس

والمضمون .. فالشكل هو القالب الذي
نصوغ وفقه القصيدة ، والمضمون هو
المادة التي نعبئ بها هذا القالب ،
والعنصران - واعني الشكل والمضمون -
هامان في عملية التجديد - فأين يقف
الشعر العربي في مراحل التاريخ
المتعاقبة من مصطلح الحداثة بشقيها .

العصر الجاهلي :

مثلما كانت الحياة الاجتماعية
والسياسية - اذ اصح التعبير - تقوم على
النظام القبلي ، كانت القصيدة تقوم على
نمط تقليدي ، فهي تبدأ بوصف الاطلال
والبكاء على الديار . ومن ثم وصف الابل
والكلأ ، والمرعى ، والصحراء ، والحل
والترحال ، والحروب ، ومجالس الانس
واللهو ، ووصف المطية .. وجاءت حركة
الصعاليك ثورة على ذلك الواقع الاجتماعي
القائم على الامتيازات لزعماء القبائل
واضطهاد للفقراء . ورافقت هذه الثورة
ثورة اخرى على النمط الشعري السائد
والذي ذكرته قبل قليل ، وعلى صعيد
المضمون ، نقف امام اغراض جديدة لهذا
الشعر .

واذا كانت احاديث الصعاليك في
بعض شعرهم تدور عن المعامرات ، ووصف
الاسلحة ، والفرار ، وسرعة العدو ،
والحديث عن الرفاق ، والغزوات على
الخيال ، واحاديث التشرد .. فان الجانب
الاجتماعي والاقتصادي هو الاهم بين هذه
الاغراض ، فمعظم الصعاليك كانوا من
الاغربة (الغراب من كان ابوه حرا وامه
امة) الذين كانوا يهانون من التمييز
العنصري ، والفقراء كان اسما مشتركاً
بينهم . ففي شعر هزيم بن الورد - على
سبيل المثال - احاديث طويلة عن هوان
منزلة الصعاليك ومقارنتهم خلف البيوت ،
بينما يرسم السليك في السلوك صور

عندما يمسك احداً القلم ليكتب
قصيدة ، تكون الحداثة هاجسه الاول فهو
يريد ان يكون مجدداً ، فما هي هذه
الحداثة ؟ او ذاك التجديد الذي نصبو
اليه .. ؟

في اي حديث عن الحداثة او المعاصرة
يبقى الكلام غير قابل للحسم ، ذلك انه
كانت العلوم بمختلف فروعها ، تخضع
لقوانين ونظريات ، وتحددها الارقسام
والمقاييس . فان الامر يختلف في الابداعات
الادبية ، ولا سيما الشعر الذي يخضع
لاعتبارات كثيرة . بعضها بيئوي ومعظمها
شخصي ، فتحل حدوده غير واضحة الملامح ،
وأهم ما عناه الشعر في العصر الحديث
الصراع بين مصطلحي المعاصرة او الحداثة
من جانب والتقليدية أو " الكلاسيكية " ،
من جانب آخر ، وكثرت الآراء في ذلك ،
حتى يكاد عددها يساوي عدد الشعراء
أنفسهم . وهذا بالتالي جعل السبيل
تتفرق بالنقد ، فتجعلهم لا يلتقون على
صعيد واحد ، ولا يستقر بهم المقام عند
رأي واحد ، ولن آتي هنا على ذكر الآراء
التقليدية في هذا المضمون . وان كنت
سأمر عليها في محاولتي لوضع رؤيتي
للحداثة او المعاصرة .

وانه .. وان كنت أفضل استعمال كلمة
معاصرة ، لأنها أكثر دقة في التعبير ،
الا انني سأستعمل كلمة الحداثة لأنها
الأكثر شيوعاً .

بادئ ذي بدء . لا بأس ان أتوقف
عند رأي أساسي لمفهوم التجديد ، ذاك
الذي يرى ان الحداثة تكون في الشكل
وحسب . ويرى انصاره ان التخلي عن
العمود في القصيدة العربية ، هو شرط
أساسي للحداثة . حتى ان البعض يحكم
على القصيدة بمجرد النظر الى شكلها .
وهنا لا بد ان نتفق ان مفهوم التجديد
الذي نتكلم عنه يتناول الشقين اللذين
يتألف منهما الشعر . وأقصد الشكل

انسانية مؤثرة لما تلاقيه الاماء السود
من الضيم والهوان - وامه واحدة منهن -
وهو عاجز لفقره ، عن ان يفعل شيئا من
أجلهن ، فالفقير دائما مقهور وأقل
الناس مرتبة ، كما يقول عروة :

ذريني للغنى أسعى فأنسى
رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم
وان أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه
حليته .. ويقهره المغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه والذهب جهم

ولكن للفتى رب غفور
هذا في المضمون .. اما على صعيد
الشكل ، فنجد ان شعر المعاليك تخلص -
اول ما تخلص - من المطولات . فأشعارهم
- في معظمها - قصيرة . وقد لا يتجاوز
عدد أبيات بعض المقطوعات عدد اصابع
اليدين الواحدة . باستثناء بعض القصائد
الطويلة ، كتائية الشنفرى ، ورائية
عروة بن الورد ، وفاسية صخر الهذلي ..
كما تخلصت اشعار المهديك من المقدمات
الطللية .. ولم يكونوا يهتمون بالترصيع
كما ظهرت القصة الشعرية التي دونوا
فيها كل ما يدور في حياتهم الحافلة
بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة
جيدة للفن القصصي . كما تجلت الوحدة
الموضوعية في قصيدة الشاعر الصعلوك .
فالمقطوعة الشعرية الواحدة ، تعالج
موضوعا واحدا وحسب ، بينما بالامكان
تقسيم قصيدة النمط التقليدي الى عدة
قصائد كل منها مستقلة بموضوعها ، ولا
يجمعها معا الا الوزن والقافية .

لكن الشعر الجاهلي بشقيه النمطي
والمتصلك يبقى ابن بيئته الصحراوية ،
فالمفردات مستمدة من هذه البيئة التي
نبت الشعر فيها . مفردات قاسية مثل
قساوة الصحراء ، وغريبة عنها غرابية
وحشة الرمال ، وقد نحتاج الى قاموس
لمعرفة معاني معظمها ، ولنتوقف عند
ثلاثة أبيات لتأبط شرا حيث يعقد مقارنة
بين سرعة الظليم والخيول السريعة ولنلمس
غرابية الفاظها :

وحثت مشعوف النجاء كأنني
هجف رأى قصرا سما لا وداغيا
من الحص هزروف كأن عفاءه
إذا استدرج الفيفا ومد المعابنا
أزج زلوج هذر في زفارف
هزف ، يبذ الناحيات الصوافنا

العصر الاموي :

في مرحلة صدر الاسلام تراجع
الشعر الى مرتبة متأخرة ، فقد انصرف
الناس عنه الى الدعوة الجديدة . ولكن
ما أن أطل العصر الاموي حتى عادت للشعر
مكانته الاولى ، وفي هذا العصر شهدت
الحياة الاجتماعية والسياسية تحولات
كبيرة ، فانتشرت الحياة الحضرية ونشأت
المدن ، وعلى الصعيد السياسي عرفت
الحياة السياسية لأول مرة نظام الحكم
التمثل في الخلافة وما نشأ عنها من
تقسيمات ووظائف ادارية ، وكان لا بد
لذلك كله من ان يترك آثاره على
المضامين الشعرية التي تطرأ لها الشعر
الاموي .

ولعل الشعر السياسي يعد من ابرز
الاعراض الشعرية الجديدة ومما ساهم في
ظهور هذا النوع من الشعر قيام شكل
جديد من الحكم وما رافقه من صراعات
سياسية دامية ، بل ان الشعر السياسي
انما جاء ليعبر عن مواقف وآراء الاحزاب
المتصارعة ، فقد انقسم الناس الى
فريقين فريق مؤيد للحزب الاموي ، وفريق
مؤيد للاحزاب المعارضة كالشيعة والعلويين
والخوارج والزبيريين .

وكان شعراء الامويين يدافعون عن
موقف الحكم ، ويحاولون الباسه اللبوس
الديني ، ومنهم جرير والفرزدق ، أما
العلويون فكان من شعرائهم الكمييت بن
زيد الاسدي المعبر عن آرائهم السياسية
والمدافع عن حقهم في الخلافة ، وعرف
من شعراء الزبيريين عبيد الله بن قيس
الرقيات ، ومن شعراء الخوارج عمران بن
حطان .

ومن الاعراض الشعرية الجديدة ،
الشعر الديني وما نتج عنه من شعر الوعظ
والارشاد ، وظهر الغزل العذري الذي عرف
عنه الكثير .

هذا في المضمون .. أما في الشكل ،
فقد ظهرت في الشعر الاموي مجموعة من
الخصائص تميزه عن العصر الجاهلي .. ولا
شك ان لغة القرآن قد لعبت دورا هاما
في صياغة جديدة للشعر ، ولعل اولى
تأثيرات القرآن في الشعر كان التكرار
سواء تكرير كلمة واحدة او جملة بكاملها
والغاية منه التقرير والتأكيد او
الافهام والاقناع ، من ذلك قول الكمييت
بن زيد الاسدي في مديح بني هاشم :

فانهم للناس فيما ينوبهم
غيوثا حيا ينفي به المحل محمل
وانهم للناس فيما ينوبهم
أكف ندى تجدي عليهم وتفضل
وانهم للناس فيما ينوبهم
عري ثقة حيث استقلوا وحللوا
وانهم للناس فيما ينوبهم
مصاييح تهدي من ضلال ومنزل
وفي مرثية مالك بن الريب لنفسه
نراه يفرط في التكرار حتى ليكاد يكرر
كلمة " در " سبع مرات في أبيات خمسة
فقط .

والاقتباس احد اشكال تأثر الشعر
بالقرآن . وجاء على انواع : فهناك
الاقتباس الحرفي مع تحوير بسيط او كبير
في تركيب الجمل وترتيبها بما يحافظ
على وزن الشعر وقافيته ، وهناك اقتباس
المعنى او الفكرة .
اما في الاسلوب ، فقد تخلصت
القصيدة من المقدمة الطللية وما اليها
من وصف الناقة والصحراء والرحلة .. اما
الالفاظ فقد توسعت دلالاتها وازدهرت
الفاظ جديدة اكثر رقة بينما اختفت
تلك اللفظات القاسية الغريبة .

العصر العباسي :

في الواقع ، يعتبر العصر العباسي
من اهم العصور التي شهد فيها الشعر
العربي قفزات كبيرة على صعيدي الشكل
والمضمون ، ولنبدأ بالمضمون .
انصرف الشاعر في هذا العصر عن
الحديث عن الاطلال المهجورة الى وصف
القصور العامرة ، وتحول عن وصف الصحراء
ومسالكها وحيوانها الى وصف الرياض
ومناظرها البهيجة ، ومضى يتحدث بأسهاب
عن جمال الربيع ، فالوصف كان احد
الاغراض الشعرية الهامة في العصر
العباسي . ولعل خمريات أبي نواس اهم
ما يمثل ذلك ، وبرز شعر الغزل سواء
ما كان منه العاجن ام العفيف ، ونما
شعر الزهد الذي كان لها بدايات في
العصر الاموي .

هذا في تطوير الاغراض القديمة ،
ولكن الشاعر العباسي تعداها الى اغراض
جديدة ، فمن الاغراض التي استحدثها
الشعراء العباسيون الشعر التعليمي ،
حيث نظم نفر منهم بعض القصص والمعارف ،
او السير والخبار ، او التاريخ والفقه
ومن الامثلة على ذلك قصيدة لأبان بن عبد

الحميد نظمها في قصص كتاب كليله ودمنة ،
وتقع في اربعة عشر الف بيت ويستهلها
بقوله :
هذا كتاب أدب ومحنة
وهو الذي يدعى كليله ودمنة
فيه دلالات وفيه رشده
وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم
حكاية على ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله
والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير الحفظ
لذ على اللسان عند الحفظ

ومن ذلك مزدوجة طويلة نظمها
ابراهيم الفزاري ، في علم النجوم
وتقع في عشرة مجلدات .. وقد بناها على
ثلاثة شطور على هذا النمط :
الحمد لله العلي الاعظم
ذي الفضل ، والمجد الكبير الاكرم
الواحد الفرد الجواد المنعم
الخالق السبع العلا طباقا
والشمس يجلو نورها الاغصاقا
والبدر يملأ نوره الآفاقا

كما نظم الاصمعي قصيدة طويلة في
ذكر الملوك الجابرة الهالكين والامم
البائدة .

وظهر الشعر الساخر الذي يمثل
احد اشكال اللهو التي ذخر بها العصر
العباسي ، فكان الشعراء يأخذون القصائد
المشهورة ويقلبونها في السخرية ، او
يؤلفون فيها المقاطع الخاصة التي
يسخر معظمها من العشاق العذريين الذي
يصل بهم عشقهم الى الجنون او الموت ،
ومن الامثلة الطريفة ما كتب بشار بن
برد وحين أجرى قصة للعشق على حمارة ،
فقد ذكر احد الرواة انه مات لبشار
حمار . فانتظر حتى اجتمع اصحابه اليه ،
بأبدى لهم حزنا ، وألحوا عليه يريدون
معرفة سبب حزنه وغمه ، فقال : انني
رأيت حلما مزعجا ، رأيت حماري في
النوم فقلت له : ما لك مت ؟ قال : انك
ركبتني يوگذا ، فمررنا على باب
الاصفهان (صاحب الاغاني) فرأيت اتانا
عند باب ، فعشقتها فمت ، وزعم بشار
ان الحمار انشده هذه المقطوعة :

سيدي مل بعناني
نحو باب الاصفهان
ان بالباب أتانا
فضلت كل أتانا

سـلـاف دن
كشمس وجـن
كدمع جفن
كخمر عدن
طبيع شمس
كلون و رس
ربيب فرس
حليف سجن
يامن لحاني
على رمانني
اللهو شاني
فلا تلمني

الموشحات الاندلسية :

وغير بعيد عن ذلك نجد الموشحات الاندلسية ، التي تمثل قفزة كبيرة في التجديد ، واول ملامح هذا التجديد ، اهتمام الوشاحين بالتلوين في الاوزان ، والقوافي في الموشح الواحد ، وقد يسير الموشح على اوزان الشعر المعروفة ، وقد يخرج عنها ، والموشح يتألف عادة من أقفال وأبيات ، وقد تبلغ الاقفال ستة والابيات خمسة ، والقفل يتكون من شطرين او اكثر ، وقد يصل عددها الى ثمانية اشطر ، وتتفق الاقفال في ان لها قافية واحدة ، ويكون للاشطر الاولى قافية واحدة وللأشطر الثانية ايضا قافية واحدة ومن الامثلة موشحة الاعمى التظليلي التي قفلها الاول :

ضاحك عن جمــــــــــــــــان
سافر عن بــــــــــــــــدر
ضاق عنه الزمــــــــــــــــان
وحواه صــــــــــــــــدري

اما البيت فأجزأوه ايضا موزعة ما بين صدر وعجز وتتفق الابيات في الوزن وعدد الاشطر وقد تختلف بالقوافي وقد تتفق ، ولكن في البيت الواحد يكون للاصدر قافية واحدة وللعجز قافية واحدة ، ومن نفس موشحة الاعمى التظليلي نقرأ البيت الاول /

آه مما أجــــــــــــــــد
شــــــــــــــــفني ما أجــــــــــــــــد
قام بي مقــــــــــــــــد
باطش متــــــــــــــــد
كلما قلت قــــــــــــــــد
قال لي أين قــــــــــــــــد

ثم القفل الثاني :
وانثنى خوط بــــــــــــــــان
ذا مهر نضــــــــــــــــر
عابثته يــــــــــــــــدان
للصبا والقطــــــــــــــــر

ثم البيت الثاني:
ليس لي منك بــــــــــــــــد
خذ فوادي عن يــــــــــــــــد
لم تدع لي حــــــــــــــــد
غير اني أجــــــــــــــــهد
مكرع من شــــــــــــــــهد
واشتياقي يشــــــــــــــــهد

وهكذا حتى يأتي القفل الاخير ليسمى

الخرجة .

اذن ها نحن امام تجديد من نوع اخر يشهد على طواعية الاوزان الشعرية العربية - والسؤال .. هل جاء هذا التجديد من الفراغ ؟ لا شك ان هذا التجديد اعتمد على عاملين ، اولهما عامل البيعة الذي يلعب دورا هاما ويأتي التجديد تلبية لمتطلباته .

فالحياة المترفة بل القمة في الترف التي وصلت اليها الحياة الاجتماعية في كل من بغداد والاندلس جعلت الشعراء يصلون بالشعر الى نفس السوية من الترف اتاحت لهم الانصراف الى ابتداء اشكال جديدة . اما ثاني العاملين ، فكان في ارتباط الشعر بجذوره ، فجاء استمرارا له ، ونلاحظ ان شكل القصيدة الذي يعتمد على العمود لم يقف حائلا في وجه ابيسة محاولة للتجديد .
العصر الحديث :

وقبل الخوض في مسألة التجديد في الشعر العربي المعاصر . لنبأس من وقفة عند اتجاهات التجديد ، وهي ثلاثة :
* اولها الشعر الحر " المسترسل " وقصائد هذا النوع حافظت على العمود الشعري وتخلت عن القافية ، فكان لكل بيت قافية تختلف عن قافية البيت الذي يليه والذي يسبقه ، ونجد هذا الاتجاه في الشعر المهجري سيما شعر اليا ابوماضي * وهذا النوع لم يصمد طويلا ففسح المجال لثاني الاتجاهين المتمثل في قصيدة التفعيلة التي خرجت عن العمود الشعري ، لكنها لم تخرج عن الوزن ، فلا بأس من الخروج عن نظام الشطرين واعطاء الحرية للشاعر يتلاعب بعدد التفعيلات في السطر الواحد ، على ان يبقى داخل الوزن الشعري .

* اما ثالث الاتجاهات ، فيأخذ بسبب التطرف الى درجة التمرد على كل قيود القصيدة من وزن وقافية وصولا الى قصيدة النثر .

وازاء هذه الاتجاهات الثلاثة لا بد من قراءة سريعة لنماذج من الشعر المعاصر ، بالنسبة للقصيدة العمودية ، فان اهم ما تعانيه الحشو من اجل تصيد قافية او استقامة وزن . وهذا يدفع الشاعر احيانا الى اضافة كلمات غير مرتبطة بمعنى البيت . او اضافة كلمة مرادفة لسابقتها كأن يقول احدهم " وقد تفردت ابداعا واتقانا " او " انما نمثل تزوير او بهتان " او في قوله

" عاش الجميع بهاصحابا وخلانا " أليس واضحا ان القافية اوقعت الشاعر في شراكها ؟ فاضطر الى تكرار كلمتيــــن تحملان نفس المعنى من اجل استقامة الوزن " ابداعا واتقانا " تزوير او بهتان " ، " صحبا واو خلانا " فكلمة الابداع تفي عن الاتقان ، والتزوير تكفي عن البهتان وكلمة الصحب تقوم مقام الخلان ، هذا اضافة الى اضطرار الشاعر الى تكرار نفس الصور ونفس المعاني في مواضع كثيرة .

بالمقابل هناك نماذج من الشعر العمودي خلية من كل مذكرته ، فخطت لنفسها طريقا جديدة ، من حيث المفردات او غرس القافية بحيث لا تكون دخيلة على البيت ، أضف الى ذلك الدخول بالقصيدة الى عوالم جديدة اجتماعيا او سياسيا لم تألفه من قبل . ولنتوقف عند بيتين لشاعر شاب معاصر :

يا غيمة تحت ثوب السمرة اشتعلت
في عري نهد كخيل البرق مندقع
ماذا اسميك ليس الليل تسمية
تليق بالسيل يغزو كل مرتفع
انها الجدة في استخدام المفردة
والصورة وصنع القافية .

اذن كيف يكون التجديد داخل القصيدة العمودية ؟

هناك اولا المفردات غير المكرورة ، وليس مهما ان تكون الكلمة شائعة الاستعمال ام لا . لكن المهم ان تنحس داخل البيت نحتا ، فلا تكون غريبة عن البيت ولا زائدة على المعنى ، وثانيا التراكيب الشعرية وبناء الصور - وهذه بالتأكيد تخضع لمقدرة الشاعر ، اما محتوى القصيدة فذاك يعود الى مجمل ثقافة الشاعر ومواقفه ورؤيته السياسية والاجتماعية .

بعد ذلك .. ليس مهما الشكل الذي يلبسه القصيدة ، فهذا امر تفرضه اعتبارات اخرى منها الحالة النفسية للشاعر ، والموضوع المطروق ، وتتالي الايقاعات الموسيقية داخل نفس الشاعر .

واذا كان لقصيدة العمود محذور الحشو او الوقوع في شرك القافية . فان لقصيدة التفعيلة محاذير اكثر خطورة ، وهي سهولة امتطاء ناصية هذا النوع من الشعر ، وبالتالي جعله مبررا لانتهاك الوزن . وبالتأكيد فقد عانت التفعيلة بدورها من تقليدية جديدة ، وشهدت الغث كما عرفت الثمين ، ولنتأمل احد النماذج التي تعتبر مأخذا على قصيدة التفعيلة :

هذا الذي في خاطري نبع
من الحب الغزير
هذا الذي من اجل تقرير المصير
لا .. لن يعود يدب مثل الخنفساء
ليدوسه النمل الحقير ..

أليست المنبرية والخطابية والمباشرة وكل المأخذ التي يأخذها البعض على القصيدة العمودية ، وهذا لا يجب ان ينسينا قصائد من شعر التفعيلة احتلت مكانة مرموقة .

اذن كيف تكون الحداثة ؟ السؤال القديم الجديد ، استطيع من خــــلال مناقشته ان اضع التصورات التالية : الحداثة لا تكون بالضرورة في الخروج على العمود الشعري ، بل ممكنة في اطاره كما هو ممكن في قصيدة التفعيلة ، وبالتالي فان التجديد يمكن ان يمس المفردات والتراكيب اللغوية ، والصور ومضمون القصيدة ، وكل يعود اولا واخيرا الى امكانات الشاعر ، ولكن المشكلة ان نقص الثروة الادبية والثقافية عند بعض الشعراء ، تجعلهم يلجؤون الى اقصر الطرق .

■ قصيدة التفعيلة هي احد اشكال الشعر العربي المعاصر ، استمدت شرعيتها من خلال اسماء كثيرة ابدعت فيها ايماء ابداع ولكنها ليست الشكل الوحيد ، ولا تلغي العمود الشعري ، بل التعايش بينهما يمكن بل ضروري .

■ ان مرور الشاعر بمرحلة القصيدة العمودية امر ضروري قبل الانتقال الى كتابة قصيدة التفعيلة او اي شكل اخر ، ومن لا يكتب القصيدة العمودية الجيدة ، لا يمكنه كتابة قصيدة التفعيلة الجيدة المراجع :

١- الشعراء المعاليك في العصر الجاهلي

د . يوسف خليف ، دار المعارف بمصر .

٢ - " شرح المعلقات السبع " الزوزيني تقديم ظافر كوجان - دمشق ١٩٦٩ .

٣ - الاسلام والشعر " د . سامي مكسي العاني - سلسلة عالم المعرفة -

الكويت ١٩٨٣

٤ - امراء الشعر العربي في العصر العباسي " أنيس المقدسي - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٧

٥ - " في الادب الاندلسي " د . جودت الركابي - دار المعارف بمصر ١٩٦٦

٦ - " الموشحات الاندلسية " د . محمد زكريا عناني ، سلسلة عالم المعرفة ،

الكويت ١٩٨٠ .

الرّهينة

قصة : كريستيان كوتار
ترجمة : عز الدين رهدان

✽ ولد كريستيان كوتار في باريس عام ١٩٥٣ ، وهو يعمل كمدرس للتربية الرياضية في مدينة " شامبني سرمان " نشرت له العديد من القصص القصيرة ، حازت قصة " الرهينة " على جائزة القصصة البوليسية القصيرة لعام ١٩٨٦ التي منحها له التلفزيون الفرنسي في نوماندي - المترجم .

تبدأ أحداث قصتنا الطائفة
الاخاذا بعض الشيء في هذه مدينة
التي تشبه الكثير من المدن
المرمية على خارطة عالمنا، لشيء
يجدر ذكره يمكن ان يميزها عن
مدينة اخرى .. وما سننقل وقائعه
يمكن ان يحدث هنا او هناك ، مع
اختلافات ، ربما ، ليست ذات
أهمية ، في المجريات والتفاصيل،
لقد حدث هذا في مدينة "مانديغيه"
سيارة تحت الخطى وقد بدت معفرة
بالتراب كأنها منهوكة القوى
كان بداخلها رجل يقودها ، لكن
يخيل الى الانسان أنها هي التي
تقوده .. وهي التي تختار ،
بالتالي ، طريقها ، كانت تجتاز
نفس الامكنة ثم تعود لتمر بها
ثانية ، متجاهلة الاشخاص الذين
يعبرون أمامها ، غير عابئين
بإشارات واضواء المرور الحمراء ،
قاطعة مفترقات الطرق بدون توقفه

كنا نرى عيني الرجل وراء
المقود ، ونراها في الممرأة
العاكسة ، فنقول في أنفسنا ،
هاتان العينان الساهيتان غائبتان
عما يجري حولهما ، ولا شك أنهما
ذرفت كثيرا من الدمع ، لا بد ان
هذا الرجل الجالس هنا قاد سيارته
فترة طويلة من الزمن ، لعله سار
بها الليل بأكمله ، بل ربما كان
يقودها منذ اليوم السابق .
كان رأسه يبدو كأن أحدا
دعكه كما يدعك جريدة قديمة ، ثم
أسلمه الى الطريق ، كان الجزء
الاسفل من عينيه محاطا بهالتين
سوداوين ، في حين بدت شفتاه
مزمومتين كأن احداهما لحمست
بالاخرى ، وكانت عضلات فكيه
تزداد تقلصا بين الفينة والفينة
وهو يكبح جيشانا عنيفا يعتريه ،
عندئذ كان يمر بيده اليسرى على
وجهه كله ، كما يمر الانسان

بيده على سبورة يريد محوها ،
بانتظار ذلك كان يلقي نظرة على
المرآة العاكسة . الا ان تجاعيد
وجهه بقيت ثابتة لا تتغير .

أدخل يده في منفضة السكاير وخرج
عقب سيكارة لا بأس به . أشعل
وتركه في الزاوية اليسرى لشفتيه
.. مستنشقا نفسا عميقا ، ومالبثت
دمعة من عينيه اليمنى ان انسابت
على امتداد أنفه واطفأت السيكارة
لم ينتبه الى ذلك فتشبثا بذلك
العقب ، مثل تشبثه بمقود السيارة
في ذلك الصباح الباكر . وسيارته
تقطع المسافات الى مكان غير
محدد .

لم يلاحظ في الحال ان
سيارته كانت تتابع سيارة اخرى
منذ فترة من الزمن . وخلال بضعة
شوارع ، لكن ابتسامة الطفل
القابع في المؤخرة هي التي جذبت
انظاره ، بدا له ذلك الطفل على
شكل ابتسامة جذلي ، حتى خيل
اليه ان تلك الابتسامة انما كانت
تتفصحه وتنظر اليه .. كان هذا
الرجل الجالس في سيارته ، وفي
الحالة التي هو فيها ، أبعد ما
يكون عن فكرة الابتسامة ، وكان
من الطبيعي الا يلحظ اي شيء .
والواقع انه لم يعد بوسعه الاهتمام
بشيء خارج عن دائرة الشقاء التي
تحاصره .. بل ان هذا الرجل كان
الشقاء بعينه .

هذه الابتسامة وهذا الشقاء ، كان
أحدهما يتابع الآخر في ذلك الصباح
الوليد في هذه المدينة ، كان
كل شيء ، أو كل شيء تقريبا ،
يجعلهما متعارضين متناقضين ،
وكان الرباط الوحيد الذي يجمع
بينهما هو هذه السيارة التي
تتخذ قرارها بصورة غير متوقعة ،
بعد برهة طويلة من الزمن صادفت

عيننا الرجل المبللتان ، تلمسك
الابتسامة .. وتحقق وهو ينظر في
المرآة العاكسة من ان تلمسك
الابتسامة موجهة له .. له هو
بالذات ، عندئذ انفجرت شفتاه
وأفلتتا عقب السيكارة الذي كان
يعتقد انه ما يزال مشتعلا ، فسقط
العقب على ركبتيه .. وبحركة
مذعورة مرتبكة نهض من مقعده
فاصطدم رأسه بسقف السيارة بعنف ،
ثم عاد الى الجلوس بحنق و دس
يده اليسرى تحت اليتيه و أخرجهما
شانية وهويمسك بعقب السيكارة
بين ابهامه وسبابته .. ثم لوح
به باتجاه الطفل بحركة تعبر عن
الظفر .

بقي العقب المطفاً بين أصابعه
برهة من الزمن ، ثم ما لبث ان
دفع به الى الشارع وراح يحففت
جبهته كشخص تجنب خطرا جسيما منذ
هنيهات . أم الصبي الرائع على
المقعد الخلفي في السيارة فقد
راح يقلد سمات الخوف التي بدت
على الرجل قبل لحظات ، كأن
يمثله حركة بحركة . ثم أخرج
يده من نافذة السيارة كأنه
يلقي بشيء ما الى الخارج . بل
أن بالغ في تقطيب جبينه جاعلا
عينيه تنقلبان كأنهما كرتان
كبيرتان .

ابتسم الرجل لتلك الايماءة
الاخيرة ، ورد عليه الطفل بابتسامة
أخاذة وهو يفرك رأسه كأنه صدم
ايضا بسقف السيارة ، ثم تظاهر
بأنه أهمل عليه واختفى خلف ظهر
المقعد وعاد الى الظهور بعد
قليل وقد أبرز محفظته على شكل
علبة سكاير . عندئذ تظاهر الرجل
ايضا بالاختباء تحت مقود سيارته
وبرز شانية وعلى رأسه علبة سكاير
فانفجرت اسارير الطفل بضحكة

كبيرة ، كانت ضحكة من الشدة بحيث ان الرجل استطاع سماع قهقهتها ، وطفق الاثنان يخرقون ثم يظهر كل منهما بدوره وقد وضع على رأسه شيئا مختلفا في كل مرة .

تابع كلاهما اللعبة خلال فترة طويلة دون ان يتنبه اليهما ثالث . ثم انتهى الامر بالسيارة التي يوجد فيها الطفل الى الوقوف بمحاذاة الرصيف . وفي الحال توقفت سيارة الرجل واصطففت وراءها تماما ، وبقي الاثنان هناك وكل منهما ينظر الى الآخر ويبتسم ويقطب ملامح وجهه ليجتذب رفيقه .

ترجلت من السيارة الاولى امرأة فارغة القوام ، فائقية الجمال ، بدت على عجلة من أمرها وقد دارت حول سيارتهما وكأنها غائبة عما يجري حولها ، دون ان يلقي نظرة على الرجل الذي أشاح بوجهه ثم قصدت قصر خبز قريب ، في حين عاد الطفل والرجل الى الالتقاء ثانية وهما سعيدان لبقائهما وحدهما وجهما لوجه ، لا يفصل بينهما الا لوحان من الزجاج وكل منهما ينتظر من الآخر شيئا لا يعرف ماهيته بالتحديد . بقيا جامدين يتراقبان ، . . كأنهما حائران بسبب هذا السكون الذي يقرب بينهما ويباعدتهما في الوقت نفسه . .

لم يجسر لا هذا ولا ذاك على الاخلال بالتوازن الواهي للغاية الموجودين هاتين الابتسامتين ، وبين هاتين الدمعتين وهذين النظيرين . هذا التوازن الذي يلائمهما كالملاءمة . ثم فتح الطفل دفعة واحدة الباب الخلفية لسيارته ونزل منها . . اقترب من سيارة الرجل ، فبقي

هذا ينظر باستقامة الى الامام ، كأنه يخشى الامر الذي يوشك على الوقوع . . لكن الاوان كان قد فات منذ ذلك الحين .

ما كاد الطفل يصل الى مستوى الباب الامامية اليمنى لسيارة الرجل ، حتى توقفت وانطلق ثانية يركض باتجاه سيارته فالقى الرجل نظرة قصيرة على الطفل وكانت نظرتة الضائعة تماثل نظرة شخص سلب منه كل شيء . . أدخل الطفل جسمه في السيارة وخرج منها ثانية وهو يحمل محفظته وعاد نحو الرجل . وعندما صار بقربه قال : - أوشكت ان أنسى محفظتي .

عندئذ أخذ مكانا له في سيارة الرجل ووضع محفظته على ارضية السيارة وقدميه على لوحة القيادة وقال :

- حسنا ماذا تنتظر ؟ انطلق . . وبدون ان يجيب انتقل الرجل الى السرعة الاولى ووثب بسيارته فصرخ الطفل :

- هيه ، لا بمثل هذه السرعة ، ليس الوقت مناسباً لوقوع حادث ، سر بهدوء وروية ولا داعي للعجلة الان . وعندما خفف الرجل من سرعة سيارته قال الطفل :

- هكذا ، أليس هذا أفضل ؟

وهكذا سار الثلاثة ، السيارة ، والرجل ، والطفل ، فترة طويلة بتلك الشاكلة ، في تلك المدينة التي بدأت تستيقظ ، وهم لا يتبادلان الكلام

بعد فترة طويلة سأل الطفل :

- هل لديك نقود ؟

فقال الرجل :

- نعم . . دفتر " شيكات " . .

- هل ليست نقودا . . سيتحتم عليك العثور على بنك لصرفها . . أليس كذلك ؟ . .

بعد فترة وجيزة توقفت السيارة في ركن احد الشوارع ، قرب موزعة آلية للاوراق النقدية ، نزل الرجل وتقدم نحو كوة التوزيع ، ثم

عاد قائلاً :

- خذها انت ، فأنا أستطيع العد عندما تكون هناك نقود كثيرة ..

وعاد يسأل الطفل :

- هل تستطيع أنت أن تتولى هذه المسؤولية ؟

- ان العد صعب حتى رقم المائة .. وما يلي ذلك يكون نفسه تقريباً كما أعلم ..

- وهل يوجد فيها أكثر من مائة

- نعم .. أكثر من ذلك بكثير ..

- اذن سيكفيها هذا المبلغ .. هيا

تحرك أيها الصبي ..

انطلقت السيارة ثانية ببطء ..

وبعد ان اجتازت بض شوارع سأل

الرجل الطفل :

- الى أين نذهب ، هكذا ؟

فأجاب الطفل :

- هل تناولت فطورك ؟

- نعم .. كلا .. لم أعد أتذكر

تماماً ..

- لقد تناولت فطوري ، أما أنت

ف يبدو عليك أنك بحاجة الى قهوة

هل نتوقف ؟

عندئذ قاد الرجل سيارته الى

مرآب قريب أمام " بار " فسي

ضواحي المدينة .. أو شيء من

هذا القبيل ..

سأله الطفل :

- هل أستطيع تناول " الشيكولاته "

مرة أخرى ، مع شرائح خبز مطلية

بالزبدة بطول خشبات التزلج ؟

- اذا كان يروق لك ذلك .

- مع مربى توت يوناني .

- اذا أردت .

- اذن سوف يتحقق لي كل ما أطلب ؟

- نعم .

- حسناً سأطلب " جامايكا " مع

شرائح الخبز .

- لك ما تشاء ..

دخل " البار " وأخذ مكانهما

أمام طاولة ممدودة ملاصقة لزجاج

النافذة ، ، وجلسا وجها لوجه ..

كانت ياقة السترة التي يرتديها

الرجل مرفوعة ، وقد أخذ وجهه بين

يديه وراح يمدع عينيه ، بينما

كان الطفل يرسم باصبعه أشكالا

على زجاج النافذة المضمخ بالبخار

اقتربت النادلة منهما ، فسال

الطفل دون أن يستعيد انفاسه :

- بالنسبة لي شراب " جامايكا "

فيه قرص ليمون حامض مع شرائح

خبز تطاول خشبات التزلج ، مطلية

بالزبدة وبمربى التوت اليوناني،

وبالنسبة له فنجان من القهوة

السوداء المكثفة ..

أوف .. قالت النادلة مبتسمة :

- هو على الاقل يعرف ما يريد .

قال الرجل :

- هكذا يبدو عليه .

ثم وضع يده على رأس الطفل وقال

له :

- والان ؟

- الان ماذا ؟

- ماذا سيحل بنا ؟

- سنبدأ منذ الان بتغيير اسمينا ،

لأن ذلك يبدو لي ضرورياً ، فعندما

تحدث قصة لاي شخص كان ، فانه يجب

التثبت اولاً من اسمه قبل اي شيء

آخر ..

وعاد الطفل يسأل باهتمام :

- اي اسم تود ان يطلق عليك منذ

الان ؟

- أنا .. أدعى ميشيل .

- هل هذا الاسم يروق لك ؟ اذا لم

يكن يروق لك فبوسعك اتخاذ اسم

آخر .. بالنسبة لي استعذب ان اسميك دافيد ، هل هذا يروق لك ؟
- دافيد ، لا بأس .

وعاد الطفل يسأل :

- هذا حسن بالنسبة لك ، اتفقنا

على دافيد .. وبالنسبة لي ؟

- لا أدري ، ما قولك بريمي ؟

- ريمي .. حسنا ..

وهكذا انتهى هذان الاثنان : دافيد

العجوز وريمي الفتى ، من تناول

فطورهما في هذه المدينة التي

بدأ سكانها يرتدون ملابسهم الان .

بعد فترة صمت قصيرة سأل العجوز

دافيد الفتى ريمي :

- والان ، ماذا نفعل ، بعد هذا ؟

- كيف ماذا نفعل ؟

- نعم ، أقصد أين سنذهب ، نحن

الاثنان ؟

- اسمع ، أنا لا أعرف شيئا عن

ذلك ، بل لا اعرف عما اذا كان

وجودنا معا امر محمود العواقب .

- لا تعرف عما اذا كان امرا محمود

العواقب ؟ لكن أأست أنت الذي

جئت لمرافقتي قبل فترة وجيزة ؟

اذن ؟

- لعله كان من المستحسن الا افعل

ذلك .. ؟

- وويديك .. فلم يمش على تعارفنا

الا بضع دقائق، وقد بدأت تلقني

على نفسك . مثل هذه الاسئلة اليائسة

انها بداية سيئة ..

عندئذالتقط الطفل شرائح الخبز

الموضوعة على المائدة ، ونهض ثم

خرج من " البار " راكضا ، ثم

تبعه دافيد ولحق به في الخارج

وبقيا واقفين ، احدهما وراء الآخر

.. ريمي يدير ظهره الى دافيد ..

قال دافيد :

- هيا ، لا تلتفت الي ما قلت ..

فقال ريمي ، دون ان يلتفت الى

الوراء :

- وشراب " الجامايكا العائد لي؟

اقترب الآخر ، من الطفل وناولته

من فوق كتفه زجاجة الشراب ، ..

فأخذها الطفل وشرب جرعة ثم بصقها

ثانية وهو يقول :

- تبا لها .. يصعب ابتلاعها في

الصباح .

أجاب دافيد :

- في الصباح وفي جميع الاوقات ..

فقال ريمي :

- أترى ، تستطيع ان تكون فكهما

ومقنعا عندما تريد ذلك، بل ان

ملاحك تبدو مناسبة ومقنعة لما

سنسعى اليه ، ولعل هذا هو السبب

المباشر الذي جعل اختياري يقع

عليك .. لا تخيب ظني ..

عادة الى السيارة ، وعندما أخذنا

فكانهما فيها ثانية سأل دافيد

ريمي :

- ماذا تريد مني ؟ .. وبالتحديد

ما هو المطلوب مني ومن مؤهلاتي

التي تحدثت عنها ؟ وبأي مجال

يمكنك توظيفها ؟

- لا شيء يذكر في الوقت الحاضر ،

ما عليك الا ان تواصل قيادة سيارتك

بعيدا عن تلك المدينة بالقهر الذي

تستطيع .. هذا هو المطلوب منك

.. تحديدا ، الان .. الان على

الاقل ..

كان دافيد ما يزال يدقق فني

عبارات ريمي دون ان يستطيع فك

مغاليقها .. لكنه لم يملك الا ان

يعلق قائلا :

- يبدو عليك انك داهية وانك

تعرف اشياء كثيرة .

- هيه .. هيه .. انني أعرف فقط

ما أريد .

- ولا تحب العجلة في الامور ، من

الممكن ان يحدث بعض الانسجام

بيننا ، رغم أننا في مواقف

متصادمة اساسا ، فانا لا اعرف

- هذا ما اقلوله انا .. والان ماذا سنحقق ؟
قال دافيد :
- لا اعرف
- حسنا .. سأكون انا اذن الذي يقرر ، سنذهب الى البحر ، كان هناك احد اقاربنا ، وكنا نزوره ، بصحبة والدي قبل ان يتوفى .. لاشك اننا سنجد بيته وسنستطيع قضاء ليلتنا هناك . بعدها سنتدبر امرنا ..
- وهل سيحالفنا الحظ ونعثر عليه
- ليست هذه هي الشقة الكأداء ..
ما ينبغي ان نفكر به هو ان يحالفا ما ينبغي ان نفكر به هو ان يحالفا
خطوتنا التالية ؟ .. لا أفهم ما تقصد ..
قال ريمي بثقة :
- يجب ان يكون هناك خطوة ثالثة ، كل الامور يكون لها خطوة تالية . ومع ان العجوز دافيد لم يفهم مضامين ما قاله ريمي ، الا انه ظل يقود السيارة الى الامام مخترقا ضاحية صغيرة كان أهلها قد بدأوا يذهبون الى أعمالهم ..
لقد سارا النهار بأكمله .. لم يتوقفا الا للتزود بالوقود .. ومرة واحدة لتناول الطعام وخلال الرحلة تحدثا عن الحياة كما كانت في السابق ، اي قبل ان يتعارفا واجتازا مناظر طبيعية ساحرة لم يستمتعا بسحرها لانهما كانا مشغولين بنفسيهما ..
لقد تعلمنا ان يتحابا .. اي ان يعيد كل منهما الى الآخر مجرد حسب تذوق طعم الوجود ، ثم خيم الليل وهما يسيران وسط خط مستقيم ، طويل ، لم يعد بوسع الانسان رؤية نهاية ذلك الخط ، على الرغم من انهما كانا يتقدمان باستمرار ،

متصادمة اساسا ، فانا لا اعرف شيئا عن اي شيء ، ولا ارغب الا في ان ارى نهاية لما يمكن ان نسعى اليه .. ان ينتهي كل شيء ويكون محمود العاقبة .
- واذا كنت موجودا معك لنبدأ كل شيء من جديد ؟
- سيكون الامر ، ربما ، في غاية الصعوبة ..
- سنحاول ، سنحاول ، حسنا الى أين سنذهب الان ؟
- لا اعرف ..
- لا تعرف ، لا تعرف ، ليس هذا جوابا ، لا يبدو عليك انك تدرك موقفنا ، كانت أمي ترافقني الى المدرسة ، وقد توقفت للتسوق فجئت واختطفيني .. هذا هو موقفنا .
- أنا اختطفتك ؟
- ومن غيرك ، هل لديك شريك ؟ انها سيارتك .. أليس كذلك ؟
- نعم ، ولكن ..
- وماذا بعد ؟ .. هذا تماما ما كنت اقلوله لك .. لقد اختطفيني .. وأنا الان لديك بحكم الرهينة .. او هذا هو حالي تحديدا ..
- لكنك انت الذي .. من تلقاء نفسك .. ثم أنك لست مجبرا على البقاء معي دقيقة واحدة .
- هذا صحيح .. وهذا ما تقوله انت ، لكن كيف تفسر لهم ذلك ؟ كنت ذاهبا الى مدرستي ثم صعدت من تلقاء نفسي في سيارة شخص لا اعرفه ؟ هذه حبكة لا يمكن استساغتها ، او تصديقها ..
- لكن هذه هي الحقيقة ..
- حسنا ، قل لهم اذن هذه الحقيقة وفي تقديري ان نصيبك في ان تعثر على من يصدقك ، ضئيل جدا ..
قال دافيد :
- اجل ، لن يصدقوا ذلك ابدا ..
فقال ريمي :

كان يلفهما ظلام عميق لا يسبر غوره ، وكان الظلام يحاصر السيارة من كل الجوانب ، وهو ما دفع ريمي الى اشعال الضوء الذي يتوسط سقف السيارة ، عندئذ غرقت السيارة من الداخل في غيمات حلزونية من الدخان الازرق المنبعث من سيكاير العجوز دافيد ، ولم يكونا يسمعان اي صوت عدا ازيز المطاط المنزلق على الاسفلت .. كأنهما في سفينة فضائية ..

كان ريمي يتحقق بين حين وآخر من اشتعال المحركات النفائشة بالاتصال بالراديو مع مجرات الخرى .. او هكذا كان يبدو . . . كانا لا يقهران وكأنهما قد تركا الف سنة وراءهما ومائة الف سنة امامهما .. والحقيقة ان الخط المستقيم لم يدم الا ستة كيلومترات .. واذا كان السير قد جرى بسرعة ١٦٠ كلم في الساعة ، فهذا يعني أنهما نعما يدقيقتين من دقائق الخلود .. وهذا امر لا يئس له واحسن من لاشيء ..

انتهى الخط المستقيم في مدخل احدى القرى الصغيرة ، وكان هناك منعطف برز فجأة بعد البيوت الاولى من القرية ، وفجأة همت بصر دافيد اضواء منبعشة من مصابيح دوارة ، كانوا موجودين هناك وعددهم يقارب خمسة عشر رجلا وهم مسلحون حتى قبعاتهم العسكرية كانوا قد وضعوا على الارض امشاطا مسننة لاجبار السيارات على التوقف ، نهض دافيد وقدمه تشد مكبح التوقف بقوة بعد ان رفع قدمه عن مكبح الوقود .. اما ذراعه اليميني فقد كانت ممدودة امام جسم ريمي ليحول بينه وبين الاصطدام بالزجاج الامامي للسيارة . انزلت السيارة بصورة مثيرة تماما

وعجلاتها المطاظلية تعوي كأنها توشك ان تنفجر ، وعلى الرغم من حذر دافيد الشديد فقد وصلته السيارة الى الامشاط الفاعرة الافواه والتي غرزت اسنانها الحادة في مطاط العجلات ، ثم توقف هدير السيارة تماما وسط جيشان كبير من الضوضاء في الخارج ، وثب العجوز دافيد من مقعده خارج سيارته يفترسه الخوف والاضطراب ، وصرخ بهم :

- ايها الاغبياء .. كان من الممكن ان تقتلوه .. كان من الممكن ان تقتلوه ..

كان ما يزال يصرخ عندما هاجمه اربعة منهم وهم يكيلون له السباب والشتائم البذيئة وقد شلو حركته وهم يمددونه على الارض وذراعاه مشبكتان خلف ظهره ، كان وجهه غاطسا في العشب المبلل ، وهناك زوج من الاحذية العسكرية يضغط على مؤخرة رقبته ، وكان اثنان منهم يوجهان الى ظهره ضربات من اخمص البندقية لحمله على السكوت ، وقد هدا كل شيء ، وهو يطلسق حشجة مع شعوره بطعم الدم في فمه .

استطاع مع ذلك ان يلتمح شبح ريمي عندما كانوا يقتادونه نحو السيارة وهم يقولون له :
- هدىء روعك ، لقد انتهى كل شيء ، لم يعدما تخشاه الان . . . ولن يستطيع هذا النذل بعد الان اصابتك بأذى .. لم تعد رهينته الثمينة ..

وسمع بوضوح صوت ريمي المرتجف يقول لهم :

- لكن .. انه .. أنا .. لا .. لم ثم لم يعد العجوز يشعر بشيء مما يدور حوله .. واعتقد انه فقد نوابه في لحظة غير مناسبة .

الشأ والمقدس

معرزكي قنصل

فقلبي بواد و العذول بواد
وشوه بالغمز الخفي رشادي
فكل شباب صائر لنفساد
ويطرق مياد ويسكت شساد
فزادك في اخراك اعجف زاد
لقلبك ، لم تظفر بغير رماد
فعقلك مغلول وجهلك بساد
وتكسى على ما فات ثوب حسداد
مرادك في دنياك غير مرادي
على الحسن لم أسلم اليه قبيادي
ويسبي هديل الساحعات فحوادي
تلوك من الاخبار كل معاد
وتسكر أسماعي بصوت نهاد
وتشغلني في يقطتي ورقادي
إذا نهشت ناب الخطوب بلادي

وقفت على حب الديار فـوادي
تضاحك مني واستخف بغصتي
يقول : تمتع بالصباة والهوى
غدا يتعري الروض من كل فتنة
إذا أنت لم تشبع وترو على الثرى
إذا أنت لم تنهب من العمر فرصة
إذا أنت لم تطلق جناحك في الهوى
ستبكي ، ولكن حين لاينفع البكا
حنانيك يا قاسي اللسان فانما
كلنا شج ، لكن روجي تمردت
يهز الربيع الطلق كامن صبرتي
وتطربني في سامر الحي ضجة
وتسحرني فدوى برائع شعرها
وتملأ "غلوائي" خيالي ومهجتي
ولكنني انسى المباهج كلها

وكيف تسوغ الطيبات بشاعر
يرى أهله في محنة اثر محنة
تشردهم في النائبات حواضر
فيلذعه جرح وتكويته حسرة
غزاهم عبيد السوط يحمى ظهورهم
وتحرسهم في البر والبحر والسما
اعدوا ليوم الهول نار جهنم
فدارت على الحق الدوائر وانحنى
وهلل للنصر الهجين زعائن
أراد لهم "بلفور" داراودولسة
فأقطعهم مهد المسيح هديسة
فبالسقاء يحمد البخيل عنده

ويا وطني ما هدت الطود زعزع
كبونا ولكن ما كبت عزمنا
كبونا ولكن لم نعفر جباهنا
كبونا ولكن لن ننام على الاذى
غدا تتنادى للعظائم امتي
وترقى سماء القدس راية يعرب
سنقسو .. ولكن لا تلمنا جهينة

وسادته من عوسج وقتصاد
يعيث بهم عات ويعيث عساد
وتأكلهم في الكارثات بسواد
على طارف من مجدهم وتسلاد
جراد من الاعوان خلف جراد
روائح بالمسوت الزوام غواد
وحاربهم قومي بغير عتصاد
جبين العلى للباطل المتماذي
يضيق بهم ناد ويبرم نساد
يرف لواها في ربى ووهساد
كما تهب المحتاج كسرة زاد
ويالزنييم في ثياب جواد

فماذا اذا جارت عليك عواد
ولا مات نور في الجوانح هساد
ولم تتزعزع في النفوس مبادي
كبونا .. أتزري كبوة بجواد ؟
ويدعو الى الشار المقدس حاد
ويضحك منكوب وينقع صناد
فاظلم منا يا جهينة بسادي

زكي قنصل

مدارس المستقبل

التربية على مشارف القرن الحادي والعشرين

ترجمة: هدى الكتياني

المدارس ان تؤهل كلا من اليافعيين والراشدين ، ولسوف يحتاج العمسال الراشدون الى اعادة تأهيل كلما ادخلت الصناعة والتكنولوجيا تطويرات احدث على مهنتهم واعمالهم ، وفي المستقبل كثيرا ما سيتعرض العمال لتغيير اماكن عملهم والانتقال باستمرار من مهنة الى اخرى ، ولسوف يحتاجون بصورة دورية الى اعادة تأهيل ذلك ان كل عمل جديد سيكون مختلفا عن العمل السابق .

يتطلب تجاوز الازمة الراهنة في ميدان التربية اصلاحات رئيسية ، فعلى المدارس ان تفتح ابوابها مدة اطول وان تدفع للمعلمين اجورا افضل وان تستقبل نوعا مغايرا من الطلاب ، اي العاممل الراشد الذي يشعر بالحاجة لاعادة تأهيله " حذار ، نحن في خطر ان لــــم تولوا المدارس المزيد من الاهتمام " هذا ما قاله حوالي ثلاثين تقريرا صدرت عن جهات معنية بالتربية ولجان خاصة وافراد مهتمين .

معظم هذه التقارير تؤكد على ضرورة اعداد الطلاب اعدادا افضل لدخول الجامعات . مع ذلك فان ثلاثة ارباع الشبان ، في الولايات المتحدة مثلاً ، لا يتخرجون من الجامعات .

في المستقبل ستكون احدى المسؤوليات الرئيسية للمدارس هي اعداد الطلاب لدخول سوق العمل المتغيرة تغيرا سريعا ، وهذا يعني توكيدا اكبر على الحاجة الى التعليم المهني التكنولوجي العالي وهي المسألة التي تجاهلها معظم المصلحين التربويين حتى اليوم .

في المستقبل ستكون المدارس ، مسؤولة عن اعداد الطلاب القادرين على التكيف والقادرين على الاستجابة بسرعة لمتطلبات التقلبات الجديدة المتغيرة . ففي المستقبل القريب ستتغير مهنت العمال تغيرا كبيرا كل فترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات . لذا ، سيتعين على

مدارس المستقبل : بحلول عام ١٩٩٠ ستكون ساعات العمل الاسبوعية بالنسبة الى معظم البالغين هي ٣٢ ساعة ، وسيكون الكثيرون ، في وقت فراغهم ذلك ، مشغولين باعداد انفسهم لعملهم المقبل . اي ان فترة الدراسة الاسبوعية ستطول بالنسبة الى الطالب كلما قصرت فترة العمل بالنسبة الى الراشد .

وهذا لا يعني ان اليوم الدراسي المعتاد سيكون اطول بالنسبة الى الطلاب وحسب بل ان البناء المدرسي نفسه سيفتح ابوابه مدة اثنتي عشرة ساعة يوميا على الاقل . كما ستتولى المدارس تقديم الخدمات للمجتمع واصحاب الاعمال والطلاب الصغار الذين يرغبون في استخدام مرافق الاستحمام وصالات الالات الحاسوبية ومراكز محاكاة الاعمال - المراكز التي تحوي الات حاسوبية واشرطة فيديو ومختلف

الادوات اللازمة لخلق جو مطابق لجو العمل مدارس كثيرة ربما ستظل فاتحة ابوابها اربعا وعشرين ساعة كل يوم ، اذ ستكون مراكز تدريب للمبالغين بدءا من الساعة الرابعة بعد الظهر وحتى منتصف الليل ، كما سيقوم بعضها بتأدية خدمات للاعمال التجارية من خلال الاتها الحاسبة ووسائل الاتصال المتوفرة فيها ما بين منتصف الليل والصباح التالي حين يعود الطلاب الصغار اليها من جديد .

وفي بعض المدارس ستفتح صفوف تضم بالغين وطلابا ثانويين معا ، واذا لم ينجح هذا البرنامج لسبب من الاسباب فسيكون بالامكان الفصل بين الفئتين والعمل على نحو مستقل . وفي بعض المجتمعات ربما سيحتل الكبار اجزاء من الابنية المدرسية التي اغلقت من قبل بسبب انخفاض عدد الطلاب المسجلين في المدرسة .

معظم المدارس في الوقت الحاضر تفتح ابوابها حوالي ١٨٠ يوما في السنة ، وقد اوصى عدد من تقارير الاصلاح التعليمي بزيادة هذا الرقم الى ٢١٠ ايام في السنة او ٢٤٠ يوما بحيث تماثل المدارس في الخارج ، غير ان كثيرا من الناس اعترضوا والارصدة المالية لم تتوفر كما ان بعض الطلاب والمعلمين يشعرون انهم لا يملكون الطاقة الذهنية لتحمل سنة دراسية اطول ، زد على ذلك ان العائلات ترغب في ان تكون لديها وقت حر لوضع خطط الصيف . كذلك فان الابنية المدرسية هي بصورة عامة غير مكيفة التكييف الهوائي المناسب .

على الرغم من ذلك فان المدارس في التسعينات القادمة ستزيد بالطراد الوقت الذي تكون فيه ابنيها قيد الخدمة وسوف تعمل الادخالات التي تتنـاول التكييف الهوائي فيها وتعديل حجم الصف وبنيتها على التلاؤم مع الاغراض الجديدة للبرامج المدرسية .

كذلك سيتسنى لبعض الطلاب فرصة تسريع برامجهم خلال السنة الدراسية كي يتخرجوا ويدخلوا الكلية او سوق العمل على نحو أبكر ، في الوقت ذاته قد يلتحق البعض الاخر بالمدرسة صيفا لاغناء معارفهم الاكاديمية من خلال دورات تعتمد وسائل الاتصال البعيد مع منطقة مدرسية او ولاية او بلاد اخرى .

وقد يجد الراشدون الكبار اشهر الصيف وقتا مناسباً للتدريب على طـور جديد من اطوار حياتهم المهنية ، وسوف

تطول السنة الدراسية الاساسية حتى تبلغ ٢١٠ يوم غير ان الطلاب لن يتعين عليهم بالضرورة ان يتواحدوا في البنـاء المدرسي طيلة الايام الدراسية لهذه الفترة .

وداعا ، يا بناء المدرسة الاحمر الصغير

لعل التلفزيون السلكي وحنقـات ربط الكمبيوتر الواصلة بين البيـت والمدرسة ستتيح في المستقبل امكانية اغلاق الابنية المدرسية القديمة المكلفة حتى وان كان عدد المسجلين فيها فسي تزايد ، فمع تناقص ساعات العمل الاسبوعية من ٣٢ ساعة عام ١٩٩٠ الى ٢٠ - ٢٥ ساعة عام ٢٠٠٠ ، سترغب الاسرة في ان تضع خططا للفتـرات الزمنية التي كان الاطفال سابقا يقضونها في المدرسة . وسيكون باستطاعة الطلاب ان يوقتوا ساعاتهم الدراسية بحيث تتلاءم مع خطط اسرهم . كما سيستخدم الكمبيوتر لممارسة المهارات التي يقدمها المعلم والتدرب عليها ، وسوف يستخدم ايضا لمساعدة الطلاب في اكتشاف حالات ابداعية وحلول للمسائل . غير ان الوسائل التعليمية المعروفة اليوم قلما تقضي اي عمل على اكمل وجه .

لذلك سيجري المعلمون بعضا من اكبر التغييرات في الوسائل التعليمية ، خبرتهم في أجهزة الكمبيوتر في الصفوف المدرسية خلال السنوات الاخيرة من الثمانينات ، ستوفر لهم نفاذ بصيرة في الاساليب التي ستحتاجها وسائل كهذه كي تتغير ، وسوف يكون المعلمون جيدين على نحو خاص في اجراء تعديلات تمكن الطلاب حتى من ترك غرفة الصف ومباشرة اعمالهم الكتابية بوسائلهم الخاصة .

العوامل المؤثرة في مستقبل المدارس :

ثمة عدد من الاتجاهات الراهنة سيؤثر في العمل والمدارس في القرن الحادي والعشرين :

- أفراد الاقليات سيصبحون هم الاكثرية في معظم المدارس الابتدائية في المناطق المدرسية ذات الحجم الكبير والمتوسط في البلاد .

- ستكون أجهزة الكمبيوتر متوفرة للطلاب في المناطق الموسرة بمعدل واحد الى اربعة (انفقت الولايات المتحدة ما مجموعه بليون دولار على الكتب المدرسية

في تاريخها كله البالغ ٢٠٠ سنة، لكنها ستنفق خلال السنوات الخمس أو الست التالية وحدها مبلغ بليون دولار على التعليم بواسطة الكمبيوتر، ثلث هذا المبلغ فقط سيدفع من قبل المدارس، ولصالح المدارس، أما الثلثان الباقيان فسيُدفعهما الآباء الأغنياء لشراء أجهزة لابنائهم، وبذلك يخلقون نوعاً من التفاوت في التعليم أشد خطورة من التمييز العنصري الفعلي. وسيوجب على المجتمع أن يفعل شيئاً لتيسير سبل الوصول إلى الكمبيوتر لجميع الأطفال. - سوف تغطي مخصصات الدولة المالية جزءاً هاماً من التمويل المالي الخاص بالتدريب على الأعمال وتوفير المعدات (بما في ذلك أجهزة الكمبيوتر) في المدارس الفقيرة.

- الاستخدام الإجمالي سيرتفع من ٠/١٧ إلى ٠/٢٥ مع انخفاض ساعات العمل الأسبوعية إلى ٣٢ ساعة بحلول عام ١٩٩٠ وإلى ٢٠ - ٢٥ ساعة بحلول عام ٢٠٠٠. - سوف تدخل المرأة، وربما المرأة المتزوجة، ميدان العمل بمعدل أسرع من أية فئة أخرى من فئات السكان.

- سيشتغل العمل في المدارس على مهنة جديدة أخرى، بما في ذلك التدريب على الحرف الصناعية.

- سيصبح المواطنون المتقدمون في السن (أكثر من ٥٥ سنة) وعلى نحو متزايد طلاباً في المدارس العامة وفي برامج تأهيل للأعمال والبرامج ذات المنشأ الاجتماعي.

- سيقدم في المدارس الابتدائية والثانوية برنامج أساسي مدته تسعة أشهر ناقلاً بذلك الموضوعات الاختيارية إلى أوقات لاحقة من الأيام الطويلة والدورات الصيفية. - سترفع رواتب المعلمين السنوية بحيث تعادل رواتب أصحاب المهن الأخرى التي تتطلب شهادات جامعية وضمن حدود ٠/١٠، فقط.

التخطيط لتعليم ذي صفة فردية :

كثير من المعلمين سوف يعملون ضمن فرق للتعليم سيكون باستطاعتها أن تستخدم المعلومات المستحدثة من حين إلى آخر على طلابها لوضع خطط تعليمية فردية، وهذه الخطط هي بكل بساطة خطط للتدريب حيث يكون لكل طالب خطة تناسب مع خلفيته واهتماماته ومهاراته. الخطط التعليمية الفردية في

مدارس اليوم تدرج في لائحة المهارات في القراءة أو الرياضيات، مثلاً، وتقتصر الكيفية التي ينبغي على المعلم أن يختبر الطالب وفقاً لها ليرى إن كان الطالب متمكناً من تلك المهارات أم لا.

في المستقبل ستعمل هذه الخطط أيضاً على ذكر ما إذا كان ينبغي على الطلاب أن يتعلموا كل مهارة ضمن فئة صغيرة أم كبيرة، بصورة منفصلة أم واحداً واحداً أم بمزيج من هذه الصيغ، كما ستقتصر الأسلوب الذي يتعين على الطالب أن يستخدمه أكثر لتطوير مهاراته أكثر - مثال على ذلك الأسلوب البصري (كقراءة الكتب أو استخدام شاشات الكمبيوتر) أكثر من السمعي (كالاستماع للاشرطة) وحالما تتحسن وسائل وأدوات -

التعليم، سيكون بإمكان المدارس أن تعلم وتدريب الطلاب على مهارات أساسية بصورة أكثر كفاءة وفعالية كما تزيد نسبة الطلاب الذين يتقنون بعض كفاءات الحد الأدنى.

أما الطلاب الذين يعملون على نحو حسن نسبياً دونما حاجة لقدر كبير من الإشراف فسيعهد بهم إلى معلمين يحسنون العمل مع الفئات الكبيرة. وفي الغالب ستقدم الدروس وتطور المهارات من خلال أجهزة الكمبيوتر العاملة بأشرف المعلم. كما أن المعلمين سيكونون مسؤولين عن وضع المخططات التعليمية ومراجعة ما تم إنجازه مع الطلاب والتأكد من أنه يتوفر للطلاب فرصة المشاركة في نطاق واسع من وضعيات التعلم: زمري - حل - المسائل، النشاطات المستقلة، جمع المعلومات، سواء في المدرسة أم في المجتمع، الأنشطة الموسيقية أو الفنية أو المسرحية التي تعمل تحت إشراف مختصين في هذه الميادين، أو المنظومات التدريبية القائمة على الكمبيوتر.

أما الطلاب الذين يحتاجون للعمل ضمن زمر صغيرة، فإن المعلمين الماهرين في نقل خبرات الفئات الصغيرة وتنسيقها هم الذين سيعملون على نقل هؤلاء الطلاب من حالة التعامل القائمة على المعلم - الطالب إلى حالة الطالب - الطالب.

ذلك أن الطلاب سيعلم بعضهم بعضاً ليس لأن المعلم لا يملك الوقت ويحاول أن يجد طريقة لإشغال فرق الطلاب تلك بل لأنه بالإمكان أن يتم في فرق كهذه تعليم ناجح وفعال.

كما أن المعلمين سيوزعون على الطلاب بناءً على نوع التعليم الذي

يخسونه ، وسيوزع الطلاب الى فئات بناء على الطريقة التي يحسنون بها التعلم وطبقا لما يشعر باحثو التعلم بانهم يحتاجونه ليكونوا ناجحين . ولن يوزع الطلاب طبقا لمستوى درجاتهم بل طبقا للمستوى التطوري الذي توصلوا اليه في كل ميدان ، كذلك لن يكون المعلمون ولا الاباء معنيين بمعدلات المعلم- التلميذ

لا اقليم رصاص ، لا كتب ؟

مع تحسن وسائل التعليم ، سوف تبدأ اجهزة الكمبيوتر بالحلول محل بعض انواع الكتب ، وبامكانها الان تقريبا ان تحل محل دفاتر التدريب ، ومن الممكن ان تصنع تلك الوسائل بصورة تلبي حاجات كل طالب وان تطور على نحو اسرع واقل تكلفة من الكتاب المدرسي . كما يمكن في الغالب معالجة عيوب الالات الكاتبة والحاسبة التي لاحظتها فئات اصـلاح التعليم الوطنية بين طلاب هذه الايام بممارسة بسيطة - شيء ما تفعله اجهزة الكمبيوتر بلا تعب .

بل يمكن لاجهزة الكمبيوتر نفسها ان توفر دخلا للمدرسة ، اذ يغدو بامكان الاباء ان يأتوا الى المدرسة كي يتعلموا كيفية استخدام الحاسبات في اعمالهم ، كما يمكن للشركات ان تستخدم اجهزة المدارس تلك لمعالجة بياناتها ليلا . كذلك يمكن وصل اجهزة الكمبيوتر باجهزة فيديو او بمعدات تماثل ما هو موجود في محيط العمل .

ولسوف توفر اجهزة الكمبيوتر الموصولة باجهزة تلفزيونية الصورة والصوت والحركة . وهكذا يمكن تعليم دروس التاريخ ، اللغة ، السياسة ، علم النفس ، الرياضيات ، مسائل الكلام ، وكذلك الموسيقى ، الفن ، الرقص من شريط تلفزيوني او تعزيز ذلك التعليم . كما ان وسائل التعليم التي يضعها احد افراد فريق التعليم ستبرمج سلاسل الصور المرئية على الشريط . وسوف يكفل برنامج الكمبيوتر ايقاف الشريط وتشغيله بين حين وحين لمواجهة اسئلة الطلاب .

كذلك لن يكون الاستخدام الواسع النطاق للمعدات المتصلة بالكمبيوتر سمة اساسية للمدارس حتى القرن الحادي والعشرين ، بل ان بعض المدارس ستستخدم اجهزة الكمبيوتر بهذه الطريقة قبل عام ١٩٩٥ بـزمن ، وفي بعض الصناعات استخدمت عمليات محاكاة الكمبيوتر لبعض الاجراءات

التي تتم في العمل بغية تدريب المستخدمين منذ ١٠ سنوات ، ونظرا لان المعدات الراقية الخاصة بمحاكاة جو العمل تكون غالية ، فمن المحتمل انها لن توضع الا في المراكز الاقليمية حيث يرسل الطلاب لفترات زمنية قصيرة كـي يدرسوا ويقيموا في مهاجع تابعة للجهاز المدرسي وتحت اشرافه . وفي النهاية ستشرع المدارس الثانوية المتميزة بتقديم وسائل المحاكاة بوصفها وسيلة من وسائل التدريب على الاعمال .

المعلمون والاعمال المهنية :

قبل منتصف التسعينات ، سيتلقى المعلمون اجورا اعلى - ترفع الى حدود التسعين بالمائة من رواتب المهنيين المماثلين على الاقل . فالمفهوم الشائع حاليا عن الاجر المستحق ليس ذا صلة كبيرة بمفهوم المساواة في الاجور او التكافؤ ، والمعلمون هم ادنى المهنيين جميعا اجرا . ففي اربعين ولاية من اصل خمسين نجد ان عامـل نفايات جديدا يكسب مالا اكثر من معلم جديد ، لذلك لا بد من فعل شيء ما في هذا المجال . والتمويل المالي المطلوب لرفع رواتب المعلمين سوف يأتي من الاعمال والمهن ذات العلاقة بالمدارس التي تعيد تأهيل عمالها ، ومن الافراد انفسهم الذين يدرسون المهارات الخاصة باعمالهم القادمة ومن الاموال المتوفرة لقاء السماح باستخدام الكمبيوتر لوقت محددة والرعاية النهارية والخدمات الخاصة بالشيوخ التي تقدمها هذه المراكز للمجتمع ، وكذلك من طرق الانتفاع الناجعة الاخرى من الابنية المدرسية .

ومع صيرورة الاعمال اوثق صلة بالمدارس ، يمكن ان يلتحق المعلمون المهرة بكل من الاعمال الخاصة وباعداد اكبر حق عما يجري في هذه الايام ، وقد يختار المعلمون مواصلة حياتهم المهنية كمدرسين للمستخدمين على الاعمال الخاصة ، لكن في كثير من الاحايين سيجد اصحاب الاعمال ان المعلمين هم مستخدمون بالغو القيمة في مجالات اخرى وسوف يتضمن بعض الخدمات التي يمكن للمعلمين ان يقدموها لرجال الاعمال ، والمهارات المتعلقة بوسائل الاتصال ، ومهارات تقييم الانجاز ، امكانيات ادارة ومعالجة المعلومات .

وربما سيتعين على المدارس التي تبتغي الحفاظ على معلميهـا الاشـد مهارة ان تعرف مخططات عمل مرنة بحيث يتمكن المعلمون من المشاركة في كـلا العالمين دون ان يضطروا للخيار بينهما وبهذه الطريقة لن تقف المدارس مكتوفة الايدي سامحة للاعمال الاخرى بان تسلبها عناصرها .

طلاب المستقبل :

لعله سيكون من بين طلاب القرن الحادي والعشرين صغار يدرجون اطفال يافعون بالغون واناس كبار السن . اما المجمع المدرسي النموذجي فيمكن ان يوفر خبرات التعلم والتدريب لطلاب تتراوح اعمارهم بين ثلاث سنوات واحدى وعشرين سنة ولبالغين تتراوح اعمارهم بين ٢١ سنة و ٨٠ سنة واكثر . يمكن للطلاب ان يكون لديهم خيارات كثيرة ضمن اطار العمل اليومي والسنوي الموسع ، - حضور الدوام المدرسي مدة سبع ساعات يوميا ولمدة ٢١٠ ايام او اكثر سنويا ، وذلك طبقا لحاجات الطالب وقدراته على ادائه واجباته . - اختيار عدد متنوع من البرامج المطلوبة منها والاختياري على حد سواء وذلك ضمن البرامج المدرسية او المهنية او برامج اغناء المعلومات . - العمل من مركز تعلم . بل بجهـاز كمبيوتر / جهاز تلفزيوني في البيت او المدرسة .

- ممارسة عمل والذهاب الى مدرسة . - تعلم مهنة على يد اساتذة محترفين . - اقتناص الفرص التي يتيحها تمديد وقت العمل في مخبر علمي او صف لتعلم الموسيقى او الفن او صف مهني . - اقتناص الفرص المتاحة للتعلم لسواء بصورة افرا دية ام ضمن فئات صغيرة .

جميع الطلاب سيتدربون على الاعمال :

التدريب على العمل لن يمنح الناس من الذهاب الى الجامعة واحـد المؤشرات هو انه ما بين ١٩٧٤ و ١٩٧٩ ازاد عدد المسجلين في كلية ذات دوام جزئي بنسبة ٢٥/٠ ، كما تزايد الان عدد الطلاب الذين يتأخرون بالالتحاق بالجامعة بعد تخرجهم من المدرسة الثانوية . هذا

التأخر ناجم عن حقيقة اساسية هي ان مساعدات الدولة للمدارس والمنح التي تقدمها لطلاب الجامعات قد تناقصت تناقصا شديدا .

كذلك ستكون المدارس ، مـسع صيرورتها اكثر قدرة على توفير المزيد من الموارد لجهازها التعليمي ، قادرة على تقديم امكانيات التدريب على الاعمال انطلاقا من الاعمال المتوفرة عمليا ، لا تلك التي ستنقرض .

واعتبارا من الصف الثامن وما فوق ، يمكن لكثير من الطلاب ان يوضعوا عمليا في اعمال مختلفة بحيث يستفيدون من المهارات التي يتعلمونها ، واذا لم تكن الاعمال التي يمكنها توفير نطاق واسع من الخبرات متاحة بصورة مباشرة للمدرسة ، فسوف يكون باستطاعة الطلاب ان ينتقلوا الى مركز تعليمي مزود بمدرسين ومحتو على احدى المعـسسات المناسبة لميادين عمل الطلاب .

وفي اي موقع من مواقع التعليم ، سيجد الطلاب ان عملهم يخضع لاشراف ويصنف حسب معايير ارباب العمل ، اذ سيراقبهم

مدرب في موقع العمل او عبر شاشة تلفزيونية وسيكون المدرس قادرا على مخاطبة الطالب وتبادل الحديث معه ، بعد هذه التجربة في موقع العمل ، سيعود الطلاب الى المدرسة للقاء نظرة على ما انجزوه ، بعدئذ تحكم المدرسة فيما اذا كان الطالب بحاجة الى انتباه اضافي او ممارسة في مركز المحاكاة او دراسته .

معلموا المستقبل :

قد لا يكون من الضروري بالنسبة الى الجهاز التعليمي في المدرسة ان يكون كله مدربا على التعليم ، فالمعلمون سيكونون جزءا من فريق العمل وسيكونون قادرين على تقديم الارشاد اللازم للتأكد من ان الخبراء المختصين بميادين اخرى غير التعليم سيقدمون موادهم على نحو مفيد .

ستتوفر لدى معلم المستقبل خبرة واسعة بموضوعات شتى مثل كيمياء تطوير الدماغ ، بدائل الجو التعليمي ، التقييم المعرفي والنفسي والجسدي وكذلك التطوير العاطفي .

وسوف تقسم الوظيفة التربوية الى قسمين :

ذلك انه بعد ان توفر في المدارس وسائل تعليم جدة تعمل بالكمبيوتر ، فان المعلومات التي تتجمع عن اداء المعلمين وانجازهم في مختلف المواقف والحالات هي التي ستحدد نوع العمل الذي سيعهد به للمعلم ، وسوف يشجع الجهاز المدرسي هذا التخصص نظرا لان افراده سيكونون المال من جراء تقديم خدمات متنوعة لاصحاب المصالح والاعمال - او يمكن للمعلمين ان يعملوا دواما جزئيا ويحصلوا على المال لقاء خدماتهم ذاتها . فيما يلي نذكر بعض الاعمال الجديدة التي قد تحدث :

- اخصائي بتشخيص التعلم .
- جامع معلومات لبرامج الوسائط التعليمية .
- مدون لوسائل الدورة التعليمية .
- مصمم منهج .
- اخصائي بتشخيص الصحة الذهنية
- مقوم لانجازات التعلم .
- مقوم مهارات اجتماعية .
- مسهل تعلم ضمن فئات صغيرة .
- مسجل تعلم ضمن فئات كبيرة .
- مخرج تدريبات بواسطة وسائل الاعلام .
- مصمم تدريبات منزلية .
- مراقب تدريبات منزلية .

وتخصيص السنتين الاخيرتين من الدراسة الثانوية للاعداد للوظيفة ليعني انه ينبغي غش النظر عن حاجة الطلاب المتوجهين نحو الجامعات الى دورات متقدمة ، مع ذلك ستكون المدارس مضطرة

لان تصبح اكثر فعالية في اقامة دورات اللغة ، الرياضيات ، التاريخ والعلوم قبل الصف العاشر ، فالطلاب الذين يخططون لاحتراف مهن تتطلب مهارات متوسطة او متقدمة في اللغات الاجنبية او العلوم او الرياضيات يمكنهم ان يمارسوا ابان دراستهم لتلك المواضيع وبصورة تجريبية اعمالا وثيقة الصلة بها .

كذلك لن يظل التعليم المهني ميدانا ضيقا لدراسة محددة وبدلا من ان يظل كما كان في الماضي ، العلاج غير الناجح الذي تم سن قوانينه وتمويله بسرعة من اجل اقتصاد منهار ، فان التعليم المهني سيفقد في المستقبل قادرا على اعداد الطلاب لحياة مهنية مليئة بالتحديات والتغيرات وليس من اجل ممارسة عملهم الاول فقط .

كما يمكننا ان نتنبأ بمستقبل متقدم وايجابي اساسا للمدارس عامة ولمدارس امريكا خاصة بناء على التيارات الاجتماعية والاقتصادية الوطنية وكذلك الاتجاهات الدولية . لكن يمكن لهذه التيارات ان تغير اتجاهها وبالتالي تغير تكهناتنا .

لكن ما من شيء سيغير هذه التكهانات بقدر ما يغيرها القعود والتبطل ، واذا ما تجاهل الناس هنا هذه التحذيرات المتعلقة بمستقبلهم الصناعي والتعليمي ، فان استقرار البلاد الاقتصادي وتفوقها سيكونان عرضة للخطر .

نسخ رسالة الغفران

بقلم: الياس سعد غالي

ألا وهو معرفة الحقيقة فقط .
أملى أبو العلاء رسالة
حوائية بعث بها الى علي بن
منصور الحلبي ، المعروف بابن
القارح . واذا ما بحثنا عن هذه
الرسالة ونسخها ، وعن مكانها
بين آثار أبي العلاء ، وفي الأدب
عند الاقدمين ، والمحدثين نرى ان
منهم من وضعوها بين رسائله الطول
كالقفاطي وياقوت وابن العديم (١)
ومنهم من ذكر اسمها " رسالة
الغفران " مجردا كالقفاطي مرة
أخرى وياقوت مرتين ايضا والصفدي
(٢) ، ومنهم من زاد في تعريفها
كسبط بن الجوزي الذي قال : ان
لأبي العلاء رسالة الغفران وهي من
مصنفاته الحسان ، وقال الذهبي :
ان للمعري رسالة الغفران التي
احتوت على مزدكة واستخفاف وفيها
ادب كثير ، وقال محمد بن عبد
الغفور الكلاعي : للمعري من
الرسائل التي لها بال رسالة
الغفران . وقال يوسف البديعي :
ان ابا العلاء كتب رسالة مسماهما
" رسالة الغفران " وكامل كيلاني
قال عند تعريفه برسالة أبي العلاء
هذه انه اطلق عليها اسم " الغفران
لان الفكرة الرئيسية التي دفعته
الى انشاؤها هي مناقشة من فازوا
بالمغفرة ومن حرموها في الدار
الآخرة وسؤاله الفريق الناجي :
بم غفر لك ؟ ، وسؤاله الفريق
الثاني الذي حقت عليه اللعنة
وكتب عليه الشقاء : لم لا يغفر
لك قولك كذا ؟ (٣) وقد عنونت
النسخ المطبوعة منها كلها باسم
" رسالة الغفران " (٤) . وقد
حرصت الدكتور بنت الشاطيء على
اثبات صور نسخ رسالة الغفران
المخطوطة الحاملة لهذا العنوان
ما بين الصفحتين ١١٢ و ١١٣ من

القص من دراستنا : نسخ
رسالة الغفران ، وطبعاتها ،
وترجماتها ، وتسمية الكوميديا
الالهية ، انما هو تحديد لموضوع
كل منها ، او العمل على تحديده
بصورة جدية وعلمية قدر المستطاع
لبيان بعض الحقائق التي لا بد من
معرفتها ، على وجهها الصحيح ،
لمن يرغب في دراسة ما يتعلق
ببعض هذه النواحي من الأدب
العلائي ، ولا سيما رسالة الغفران
من جهة ، ومن جهة ثانية للقضاء
على خيط بعض الأدباء ، وتفاديهم
من الوقوع في أخطاء ، هم في غنى
عنها ، بالنظر الى مراكزهم
الأدبية والعلمية ، باذلين قصارى
الجهد في هذا السبيل ، ومؤملين
التعاون المجدي من كل من يعرف
شيئا فأتنا من هذا القبيل ، فيبديه
مشكورا ، تحقيقا لهدف وحييد

رسالة الغفران التي حققتها وهي التي تشير الى ان كاتبها " الشيخ ابو العلاء المعري " :

١ - نسخة كوبريلي زاده

٢ - نسخة الشنقيطي

٣ - نسخة الاستانة

اما نسخة الاسكندرية فهي لا تحمل عنوانا في الاصل انما كتب العنوان على ورقة متأخرة . غير ان بنت الشاطيء كثيرا ما سمت هذه الرسالة في غفرانها ، وفي الرسالة التي حققتها باسم " الغفران " فحسب ، وكأنها تميل الى القول ان ابيا العلاء المعري سماها " الغفران " فقط ، وان الخلف هم الذين صنفوها ، وأطلقوا عليها اسم " رسالة الغفران " وقد اطمأنت ، بعد بحث طويل ودقيق ، الى ان ديوان " الرسائل الفنية الطوال هو المكان الصحيح الذي اختسارت وضع " الغفران " فيه (٥) .

الشيء اللافت للانتباه ، ان الدكتورة عائشة عبد الرحمن عنونت اطروحتها هكذا : " الغفران لابي العلاء المعري " ، في صفحة الغلاف ، وكرر هذا العنوان في الصفحتين الاوليين الداخليتين ، وكرر اسم الغفران وحده في الفهرس ٢٢ مرة ، وكرر مرات في مقدمتي ، رسالة الغفران ايضا (في المقدمة الاولى ١٢ مرة وفي المقدمة الثانية ٨ مرات) والاستاذ كامل كيلاني لا يفرق بين " الغفران " و " رسالة الغفران " في كتابه " على هامش الغفران " . أيكون المعري سمي رسالته الى ابن القارح " الغفران " فحسب ، ؟

على كل حال لقد اشتهرت هذه الرسالة واجمع الذين كتبوا عن

ابي العلاء وعنها منذ القديم على تسميتها : " رسالة الغفران " في

كتبهم ومقالاتهم ، وتكاد لا تعرف الا بهذا الاسم .

اما تاريخ املاء هذه الرسالة فقد اهمله المؤلف واهمل الاقدمون تحديده وليس هذا بمستغرب منهم كما قالت بنت الشاطيء اذ لم تجد فيما كتبوه عن ابي العلاء ، على كثرته ، عناية خاصة برسالة الغفران او اهتماما واضحا بها واكثر ما تجيء في فهرست كتبه وقد يكتفى بذكر اسمها مجردا بين ثبوت المؤلفات وهذا هو الغالب . وقد أرجع مصطفى صالح تاريخ تدوينها الى عام ٤١٤ هـ وحسب قول نيكلسون (٨) والى عام ٤٢٤ هـ حسب قول كراتشكوفسكي (٩) ، لكن بنسبت الشاطيء التي نوهت بقول كامل كيلاني (١٠) الذي أرجع هذا التاريخ هو ايضا الى عام ٤٢٤ هـ قالت ان اقصى ما تستطيع قوله ان رسالة الغفران كانت تملى حوالي عام ٤٢٤ هـ . ورأيها هذا يبدو الاصوب ، وهذه خلاصته :

يستنتج من قول ابي العلاء في رسالة الغفران : لا يجوز ان يخبر مخبر من مائة سنة ان أمير حلب في سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان ابن فلان وصفته كذا (٤) ، ان هذه العبارة من الرسالة كانت تكتب عام ٤٢٤ هـ وهذا الاستنتاج رجحه قول ابن القارح في رسالته الى ابي العلاء : كيف اشكو من قاتني وعالني نيفا وسبعين سنة وابن القارح في السبعين ونيف وقد ولد في السنة الاولى بعد منتصف القرن الرابع (٣٥١ + ٧٠ = ٤٢١ هـ) ، فعبارته هنا تنص على ان رسالة ابن القارح كتبت بين عامي ٤٢٢ و ٤٢٤ هـ ، حيث يكون عمره نيفا وسبعين سنة (١٢) . وقد استنتج كامل كيلاني تعليقا على هذه

العبارة ان رسالة الغفران كتبت في تلك السنة (١٣) وقد سبقه نيكلسون الى هذا الاستنتاج بنحو نصف قرن من الزمان (١٤) فقال :

" The date of the Risala is fixed at 424 A.H. by the following sentence, which occur in passage denying the possibility of prediction".

ونقل العبارة التي اوردناها آنفا .

وفي رأي بنت الشاطيء ان ابا العلا املى تلك الفقرة بالذات عام ٤٢٤ هـ بالذات ، ويحتمل ان يكون املى ما قبلها عام ٤٢٣ هـ وما بعدها بعد ذلك العام واقصى ما تستطيع قوله ان رسالة الغفران كانت تملى حوالي عام ٤٢٤ هـ . وقالت بنت الشاطيء : اكاد اسمع صوت قارى متعجبا او متهكما ساخرا : يا لله اكل هذا العناء من اجل وضع لفظ حوالي ؟ من يدرك؟ حرمة اللفظ سيعرف ان هذا فرق ما بين الدرس العلمي وسواه .

اما فيما يتعلق بنسخ الغفران ونقلها الى الغرب فقد ذهب المؤرخون والباحثون والكتّاب في ذلك مذاهب شتى . فمنهم الذين يجزمون لم يثبت لهم حتى اليوم وجود مخطوط عربي لهذه الرسالة في المكتبات الغربية ١٠ ، ومنهم الذين يؤيدون ويجزمون بحجة انتقال نسخ من رسالة المعري الى اوووبا منذ القديم ، فالدكتورة بنت الشاطيء مثلا من اجل تحقيق رسالة الغفران ، لأبي العلا عانت مشقة وكلفة السفر الى تركيا والحجاز والاسكوريال وايطاليا وبريطانيا بحثا عن نسخ رسالته الغفران في حين ان بعض الكتّاب

يجزمون بكل بساطة وبدون اي برهان بان نسخ تلك الرسالة متوافرة وبكثرة في مكتبات اوروبا وانها ترجمت الى لغات اجنبية ايضا .

نشركامل كيلاني رأيا لمجلة الهلال عام ١٩٠٧ (١٥) جاء فيه :
عثر على رسالة كبيرة تسمى رسالة الغفران ٠٠ لم تطبع بعد ٢ ولكن منها نسخا خطية في بعض مكاتب اوروبا الكبرى وفي المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية) صفحاتها نحو ٢٠٠ صفحة ، وقد ذكر في كتابه "على هامش الغفران" ص ١٢٢ انه عني بتحقيق نص رسالة الغفران وضبطه وتحري اصح رواياته في مختلف النسخ ، لكنه لم يقل شيئا مفصلا عن هذه النسخ واول ذكر جدي لمخطوطات

رسالة الغفران ، حسب قول بنست الشاطيء (١٦) ، خطاب بعث به نيكلسون الى رئيس تحرير مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ، نشر في عدد يوليو - تموز ١٨٩٩ اكتبني فيه بالاشارة الى مخطوطات عربية ظفر بها اهمها رسالة الغفران ، والى مالك سابق للمخطوطة كانت في حوزته وهو : يوسف ابن المرحوم زين الدين المصري الحلبي ، ولم تقف بنت الشاطيء على اثر لهذا الاسم مع بحثها وتحريها . وازافت الدكتورة عائشة عبد الرحمن الى ما سبق قول نيكلسون : من العبث البحث عن رسالة الغفران في فهارس المكتبات الاوروبية " ، وقد اولت بنت الشاطيء نسخة نيكلسون اهتماما كبيرا في مقدمة رسالة الغفران (١٧) .

والدكتور مصطفى صالح (١٨)

اول من نوه ، فيحد علمنا ، ان عبد الرحيم أحمد قدم امام اعضاء مؤتمر المستشرقين الذي انعقد

في باريس ما بين ٥٠ و ١٢ ايلول ١٨٩٧ كلمة اشار فيها الى حصوله على مخطوط من رسالة الغفران .
لكن الدكتور صالح اي قبل انعقاد المؤتمر اضاف الى ماتقدم قوله :
لم تذكر رسالة الغفران في اوروبا قبل عام ١٨٩٧ ، فلم يذكرها اوزانام في مقالته حول فلسفة دانتى ولا في كتابه : المصادر الشعرية للكوميديا الالهية ، ولا دانكونا ، ولا بلوشية فسي كتابه : المصادر الشرقية (الفارسية) للكوميديا الالهية . ونحن نكتفي هنا بالتنويه بما قاله الدكتور صالح لتعذر الوصول الى اكثر مما ذكر بخصوص مخطوط عبد الرحيم احمد .

لم يلفت الباحثون الانتباه الكافي الى ان ابا القاسم الكلاعي احد وزراء الاندلس في عهد ملوك الطوائف الذي عاش في اواسط القرن السادس الهجري ، كان شاعر واديبا مطلعا ، وانه وضع كتاب " احكام صناعة الكلام " الذي جاء فيه انه الف كتابا على مثال " السجع السلطاني " لابي العلاء وانه عارض ابا العلاء في رسالة " الصاهل والشاحج " وفي " سقط الزند " بكتاب سماه : " ثمرة الادب " وقد ذكر الكلاعي عددا من مؤلفات المعري وقال قولا هامما يتعلق برسالة الغفران .

لقد سها اكثر الباحثين عن التنبيه والاشارة الى اهمية قول الكلاعي المذكور صراحة في كتاب " تعريف القدماء بابي العلاء " : ان لابي العلاء من الرسائل التي لها بال رسالة الغفران " (١٩) ، مع ان هذا القول يثبت اثباتا قاطعا ان ابا العلاء كان ذائع الصيت في المغرب و ان

نسخة على الاقل من رسالة الغفران ذاتها قد وصلت الى الاندلس وتبوات مكانتها فيها .

ونحن لم نتمكن من معرفة اكثر من ذلك عن هذه النسخة فقد يكون الكلاعي قال شيئا كثيرا عن تاريخ هذه النسخة وعن ناسخها وكيف حصل عليها او انه لم يقل شيئا سوى ما نقل لنا عنه ، وقد اولته بنت الشاطئ اهتماما حتى انها اشارت الى ان جد الكلاعي عاصر ابا العلاء (٢٠) وسبق لقسطاكي الحمصي ان قال في اتهامه دانتى بالاطلاع على رسالة الغفران : قد يكون دانتى اطلع عليها بنصها العربي او مترجمة (٢١) ، لكنه لم يؤيد زعمه هذا بأي برهان علمي .

ومنذ بضع سنين حلت الكاتبة فاتنة شامي عقدة معرفة دانتى للعربية واطلاعه على رسالة الغفران وعقدة ترجمتها الى لغة كان دانتى يجيدها فقررت بكل بساطة وبدون اي دليل ان دانتى الذي عاش في وسط اسلامي كان يجيد اللغة العربية واستطاع ان يحصل على مخطوطات قديمة لرسالة الغفران (٢٢) ، غير ان الاديبه شامي لم تذكر اين كانت مثل تلك المخطوطات محفوظة وكيف تسنى لدانتى ان يطلع عليها ، في حين ان الاستاذ الجامعي عبد اللطيف الطيباوي (٢٣) قال : " ان دانتى عاش في وسط اسلامي في ثقافته ، اسلامي في تمدنه " ، والفرق بين قول الاديبه شامي ، وقول الاستاذ الطيباوي كبير جدا ، وكلا القولين يحتاج الى كثير من الدراسة والبحث الدقيق ليكون حجة وبرهانا يركن اليه .

اما الحديث اليقيني عن مخطوطات رسالة الغفران فقد

حدثتنا به الدكتورة بنت الشاطيء (٢٤) بعد ان سافرت الى اقطار بعيدة وقضت سنين عديدة في البحث فقالت : ان نسخ رسالة الغفران الاصلية المعروفة موجودة فسي مكتبات تركيا ، وان كان من المحتمل ان توجد نسخ منها مدفونة في الشرق ككثير سواها ، وعلقت على قول نيكلسون بانه صدق في توقعه اذ عثرت على مخطوطة من رسالة الغفران يرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر هجري مدفونة في مكتبة البلدية بسوهاج ، وعلى نسخة اخرى في مكتبة الاسكندرية تحمل رقم ٣٦٦ .

وتعدد بنت الشاطيء النسخ التي تسنى لها الاطلاع عليها :
١ - نسخة كبريائي زاده باستانبول تحمل العنوان التالي : " رسالة الغفران " كتبها الشيخ ابو العلاء المعري . انتهى نسخها في رجب سنة ٦٦٨ هـ وقوبلت على نسخة قام بتصحيحها الشيخ ابو زكريا الخطيب التبريزي تلميذ ابوالعلاء ، وهي تعد ، فوق كونها النسخة الوحيدة الاصلية التي اتصل نسبها بابي العلاء ، او في النسخ حظا من الصحة والضبط ، والاتقان ، ولذا اعتمدتها بنسب الشاطيء (رسالة الغفران ص ٧٦ - ٧٨)

٢ - نسخة الشنقيطي تمت كتابتها في سنة ١٣٠٥ هـ راجعها الشيخ محمد محمود الشنقيطي وصححها بقلمه وهي تحمل العنوان التالي : رسالة الغفران كتبها الشيخ ابو العلاء المعري .

٣ - النسخة التيمورية الناقصة ، تمت كتابتها في ٢٥ ذي الحجة ١٣١١ هـ نقلا عن نسخة الشنقيطي ، وتمت مقابلتها عليها في ٢٤ صفو

١٣١٢ هـ .

٤ - نسخة الاستانة منقولة عن اقدم نسخة معروفة من الغفران لم يتصل سندها بابي العلاء وليس على صفحاتها اشارات الى مالكيها او مراجعين قراؤها او قابلوها على نسخة اخرى . نسخها اسماعيل شاكر عام ١٣١١ هـ عن نسخة بالاستانة مكتوبة عام ٦٢٠ هـ ، تحمل هذا العنوان : " رسالة الغفران كتبها ابو العلاء المعري .

٥ - النسخة التيمورية الكاملة لم يذكر تاريخ نسخها ويطن انها كتبت في اواخر القرن الثالث عشر الهجري .

٦ - نسخة مكتبة سوهاج ، مجهولة الاسم واسم المؤلف واسم النسخة التي نقل عنها وكذلك تاريخ نسخها بينها وبين مخطوطة نيكلسون شبه وصلة .

٧ - نسخة مكتبة جامعة الاسكندرية ، نسخة كاملة كتب عليها : كتاب في الادب لعلي بن منصور ناسد الوجود ، ولا تحمل اسم رسالة الغفران ولا اسم ابي العلاء ، تم الفراغ من نسخها في ٦ محرم ١٩٧٨ هـ ولم يذكر اسم النسخة التي نقل عنها وهي شبيهة بنسخة سوهاج .

٨ - نسخة مما نشر من نسخة نيكلسون ، النسخ الثلاث الاخيرة تنتسب الى اصل واحد لعله نسخة سوهاج او نسخة اقدم منها ضائعة . هذا ما توصلنا الى معرفته بخصوص نسخ رسالة الغفران نقدمه الى القراء والباحثين عسى ان يفيدوا منه في بحوثهم بثقة واطمئنان ونأمل ممن يعرف غير هذا او اكثر من هذا ان يتفضل بالافضاء بما عنده للتوصل الى معرفة الحقيقة كاملة وتوفيدها للكتاب والادباء بلا تعب ولا عناء .

٥ - ابو العلاء : رسالة الغفران
ص ٢٩٩ و ٣٠٠

كقوله ابن القارح للحطيئة لم لم
يغفر لك بقولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس
فيقول : لقد سبقني الى معناه
الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ،
فحرمتم الاجر عليه ، فيقول له ابن
القارح : بم وصلت الى الشفاعة ؟
فيقول : بالصدق في قلبي :
أبت شفتاي اليوم ألا تكلمنا
بهجر فما أدري لمن انا قائله
أرى لي وجهها شوه الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله (٣)

(٦) مصطفى صالح : نيكلسون ، كشف
مصادر دراسة ابي العلاء ص ١٥٢ رقم
١٧٢

(٧) مصطفى صالح - كراتشكوفسكي :
كشف مصادر دراسة ابي العلاء
ص ١٧٦ رقم ٢٤٥

(٨) كامل كيلاني : رسالة الغفران
ط ٢ ج ١ ص ١٩٢٥/٣٥

(٩) كامل كيلاني : مختارات كامل
كيلاني ص ١٧٨ / ١٩٢٩ الحاشية الاولى
(بنت الشاطيء) : الغفران ص ١٠
١٠- ابو العلاء : رسالة الغفران
ط ٢ / ١٩٥٧ ص ٤٤٢

(١١) - بنت الشاطيء : الغفران ص
٨ - ١٠

١٢- مصطفى صالح : كشف مصادر
دراسة ابي العلاء ص ٢٦٣ رقم ٦٣٩
١٣ - كامل كيلاني (الشرح) ص ٢٤٠ ط
دار المعارف - رسالة الغفران
ط ٢ ج ٣ ص ٣١ (رسالة ابن القارح
١٤- بنت الشاطيء : الغفران ص ٩

١- القفطي (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ انباء
الرواة) تعريف القدماء لابن
العلاء ص ٤٧)

- ياقوت (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ ارشاد
الاربيب) تعريف القدماء لابن
العلاء ص ١٠٩)

- ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ)
الانصاف والتحري (تعريف القدماء
لابي العلاء ص ٥٢٣)

٢ - القفطي : انباء الرواة (تعريف
القدماء لابي العلاء ص ٥٠)

- ياقوت : ارشاد الاربيب (تعريف
القدماء لابي العلاء ص ١١١- و ١١٣
- الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ) الوافي
بالوفيات (تعريف القدماء لابي
العلاء ص ٢٧٥)

والغيث المسجم (تعريف القدماء
لابي العلاء ص ٤٠٥)

(٣) - سبط بن الجوزي (٥٨١ - ٦٥٤
هـ) : مرآة الزمان (تعريف
القدماء لابي العلاء ص ١٥٤)

الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) تاريخ
الاسلام (تعريف القدماء بابن
العلاء ص ١٨٩)

- محمد بن عبد الغفور الكلاعي
(منتصف القرن السادس الهجري)
احكام صناعة الكلام (تعريف ص ٤٥٣
- يوسف البديعي (القرن الحادي
عشرهجري :) اوج التحري عن حيثة
ابي العلاء المعري ص ٨٨

- كامل كيلاني : رسالة الغفران
ط ٢ : ١٩٢٥ ج ١ ص ٣٥

٤ - بنت الشاطيء : رسالة الغفران
ط ٢ / ١٩٥٧
والغفران / ١٩٥٤ ص ٢٩٣ و ٢٩٤ و
١٩٩

- * حتى عهد دانتني (١٢٦٥ - ١٣٢١)
- ١٥- كامل كيلاني : رسالة الغفران ط ٢ ج ٣ ص ٩١/١٩٢٥ مجلة الهلال سنة ١٩٠٧ ص ٢٠١
- ١٦- بنت الشاطيء : رسالة الغفران ط ٢ ص ٩٥ و ٩٦ - ١٠٧ / ١٩٥٧
- ١٧- نفس المصدر
- ١٨- مصطفى صالح : كشف مصادر دراسة ابي العلاء ص ١٥٢ رقم ١٦٩ / ١٩٧٨ ومجلة جيش الشعب / ١٩٦٩ (كشف ص ٢٨٤ رقم ٧١٥
- * ٢ في حين ان رسالة الغفران طبعت اول مرة في القاهرة عام / ١٩٠٣
- ١٩- تعريف القدماء بابي العلاء - ابو العلاء في الادب العربي ص ٤٥٣
- ٢٠- بنت الشاطيء : الغفران ص : ٣٠٩ - ٣١٠
- ٢١- قسطاكي الحمصي : مجلة

- مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٢٧ ومنهل الموارد في علم الانتقاد ج ٣ ص ١٩٧ / ١٩٣٥ .
- ٢٢ - فاتنة شامي : جريدة تشرين الدمشقية عدد ١٨٣٧ عدد ١٨٣٧ بتاريخ ١٩٨١/٤/٢٦
- ٢٣ - عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الاسلامي العربي ص ١٢١ / ١٩٢٨
- ٢٤ - بنت الشاطيء : رسالة الغفران ط ٢ / ١٩٥٧ ص ٧٥ - ١٢٠ / وجريدة الاهرام تاريخ ١٩٦٧/٠/٢٧
- محمد عزت نصر الله : نشر نصا لرسالة الغفران اعتمد في تحقيقه حسب قوله ، على مخطوطة ، "كوبريلي زاده " اعاره اياها السيد سي رابح بورباط " وفيها اختلاف بعض الشيء عن طبعة بنت الشاطيء ، تاريخ مقدمة هذه الطبعة ١٩٦٨/٦/٢٥ (المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان)

أسرار

الصفة الثانية

قصّة: عيسى موسى

عندما كان الضياء يصفح نوافذ البيت ،
الغافي ، ويلج الى الداخل ، فتستيقظ
ام وفاء ، وتمضي مسرعة الى سفح الجبل ،
تحمل بيدها رغيفا من الخبز الاسمر
مدهونا بالزيت والزعتر ، وحزمة من
البصل الاخضر ، ويدها الاخرى تشتبك بيد
وفاء تقودان الخراف الى المراعي ، تطلب
الام من ابنتها ان تراقب الخراف ،
ان تقف على يدها عندما تحلب النعاج ،
وفاء تنفذ ما تميله عليها الام وبعبقوية
الطفولة تتناول رغيف الخبز ، تنهال
عليه بشهية وهي تركض هنا وهناك ، تقطف
اقحوانة من بين الاعشاب الخضراء ، تبتسر
وريقاتها وتردد كلمات سمعتها من الغيد
الحسان نعم .. لا .. نعم .. وتجري
فرحة تقفز بين الخراف ، تضم حملا صغيرا
تقبله وتحضن آخر .

تخبرها الام (مهلك يا وفاء) ،
لكنها تتابع اللعب والجري بلا ملل .
هكذا مرت الايام ، حلوته خصة حتى حط
ذلك اليوم رحاله ، واختطفتها يد المنية
فانسحبت البسمة خلى واحتلت الكآبة
ارجاء البيت مدعمة وجودها في نفس
وفاء .

لم تعد الطفلة المرحّة ، الطليقة
خيم عليها الوجوم ، غارت عيناها واصفرت
وجنتاها ، ثم قبعّت في صمت دائم لاتنفرج
شفتاها بكلمة او سؤال ، وكأنها اصبحت
قطعة واحدة ، انهكها الصمت الحجري ،
يقبل الليل فتتكوم على بعضها في احد
اركان البيت ، ويغلب عليها نعاس ثقيل
ثم تجتاحها احلام مرعبة ، تفيق على اثرها
عدة مرات وهي مضطربة ، ترتعد فرائصها
فتجهش بالبكاء .

والدها رجل غير مبال ، قضى
حياته المريحة على اكتاف زوجته
المرحومة ، وها هو الان لا يعير ابنته
ذلك الاهتمام الذي يفترض ان يحيطها به ،
ويعوض لها جزءا من حنان الام المفقود .
بعد فترة قصيرة اخذ يفكر ببديلة
عن زوجته المتوفاة ، راح يسأل العجائز
فعندهن يجد المقبل على الزواج ضالته ،
فاخبار بنات ونساء لقريّة لا توجد الا
في سجلاتهن .

بسهولة وجد ضالته ، وتزوج من
فهمية ، لها ابنة من زوجها السابق ،
أكبر من وفاء بسنة واحدة .

كلما نظرت وفاء الى زوجة ابيها
تشعر بقشعريرة تجتاح كيانها ، وتشمئز
نفسها ، فتقول (تبدلت الغزلان بالقروذ)

صارعت وفاء الموت ، وتشبثت
باهدا ب الحياة ، استفاقت على نسيمات
لطيفة تلثم وجهها وتداعب خصلات شعرها ،
احست ببرودة تتسلل الى جسدها المتعب ،
حاولت النهوض فلم تسعفها قدمها ، ولكن
ما لبثت ان انتصبت قامتها الممشوقة
كعود من الخيزران . تنقل بصرها في
ارجاء الصفة الثانية وجدتها كالصفة
الاولى لا تختلف عنها في شيء فالطاعة
ساحرة ، والسماء زرقاء صافية زاهية
مضمخ باريج الورود والرياحين .

ابتسمت في سرها وقفزت دون احساس
بالالم .

قبل ان تضع قدمها على الطريق ، ادارت
وجهها نحو ذلك المكان الذي فارقت دون
وداع ، ثم عرجت نظرتها الحزينة الى
قمة الجبل الامين ، وصدر الرابيعة
الحنون ، لوحّت بيدها ، ووعدت بالعودة
ثم سقطت دمعة واحدة كانت اخر ما تبقى
لديها من دموع .

سمعت أنغام شبابة (رضوان) -
تمتزج بزقزقة العصافير ، وموال (راضي)
يصدح بعذوبة ، وثغاء الخراف يردده
الصدى ، فتأجج الحنين في صدرها ، ولاحت
امامها ايام الماضي ، وابتسامة الصباح

تستيقظ كل صباح على صوب عنيف
يصيح بها : هيا انهضي .. الخراف جائعة
تنتثر .

تهرول وفاء الى حضن الجبل الطيب
تقص عليه حكايتها كل يوم ، وتعود في
المساء لتحلب النعاج وتقدم الحليب
الطازج الى ابيها وزوجته وابنتها .

في صباح يوم كانت مع الخراف عند
سفح الجبل ، وفجأة بدأت تروح وتجيء ،
تحوم كالنحلة ، تبحث كالهائم في متاهة
اعياها الجري هنا وهناك ، تعبت قدمها
الصغيرتان ، فجلست على العشب الاخضر
تأثمة النظرات ، ثم نهضت من جديد
وعاودت الدوران .

تلقت وعيناها مسمرتان في الارض وبعد
لاي جثت بخشوع امام مرتفع من الارض
ادركت انه المكان الذي ضم رفات والدتها
وضعت زهرتين فوق القبر وانهمرت دموعان
كحبتين لؤلؤ فوق خديها ، مدت اصابعها
في التراب ، حملت حفنة منه وقربتها من
انفها ، ثم ضمتها الى صدرها ، والتوت
كغصن ذابل قاوم العطش ثم ذوى .

بقيت هكذا وعقارب الساعة تدور
وهي لا تحس بما يجري حولها .

ابتعد ثعالب الخراف عنها ، وهي
ما تزال قابضة في هذه البقعة الصغيرة
من المرج الاخضر الواسع .

ترامت الى مسمعها جلبة ، وضحكات
كزقزقات العصافير ، ظنتها حلما الى ان
احيطت بمجموعة من فتيات القرية في
مثل سنيها ، يحملن الحقائب ، ويرتدين
الملابس المدرسية ، شعورهن معقوصة
بشرايط بيضاء تنساب فوق ظهورهن باناقة
رائعة .. شئت عينيها الملتصقتين بصعوبة
وقطرات من الدموع بقيت عالقة باهدابها
وقد تورمت اجفانها .

مالت برقبته وتطلعت الى وجوههن
المستبشرة ، لم يبد عليها اي اهتمام ،
ولم تتحرك قيد انملة من مكانها .

اقتربت منها سعاد ، الطفلة التي كانت
تلعب معها ذات يوم بجانب البيت قبل
ان تترتب عليها الواجبات المدرسية ،
احتوتها بين ذراعيها الصغيرتين

وبطريقة مذهلة اشارة دهشة الرقيقات ،
تحدثت سعاد وكأنها تجاوزت طفولتها ،
بدأت تواسيها وتزيح الحزن الجاثم عن
صدرها ، امسكت بيدها واوعزت الى
رفيقاتها ان يساعدها على الوقوف ،
وقفت ولكن ساقيها الرخوتين بدأت
تهزان تحت جسمها النحيل .

افتر شغرها عن ابتسامة باهتة ،

ارتعشت شفتاها ثم انفجرت زاويتيها في
اللحظة التي تسبق البكاء عادة ، رأت
من خلال الدموع صورا ضبابية لامهيات
وقفن على الابواب ينتظرن قدوم بناتهن
من المدرسة ، ثم اجهشت بالبكاء .

أخذت البنات يهدئن روعها ،
ومشين معها بضعة امتار ابعدها عن
القبر ثم عدن الى البيت .

وفجأة قفرت ، راحت تعدو لتجمع
الخراف المتباعدة ثم عادت وجلست فوق
صخرة على حافة النهر ترمي فيه الحجارة
الصغيرة واحدة خلف الاخرى كأنها تعد
الايام التي مرت على وفاة والدتها
وقدماها ترشقان الماء ، امتد بصرها نحو
الافق ، قطبت حاجبيها وتنهدت بعمق ثم
ادارت وجهها ، تعي الانفلات من القفس
وهي في رحاب الطبيعة ، فالضيق يحتم
فوق صدرها والحرن يكتم انفاسها ، ومنذ
تلك اللحظة انتصبت امامها صورة تلميذة
ترتدي (مريولا) وتحمل حقيبة وتعقص
شعرها الى الوراء . هزت رأسها اسفا
وراحت تراقب حركات الخراف ، وتعقب
بالاعشاب ، تقطف الاقاحي وتصنع منها
سوارا تضعه حول معصمها .

لمحت على مقربة منها كتابا
التقطته بلهفة ، قلبته بين يديها
وابتسامة لطيفة اضاءت وجهها الصغير
ثم ضمته الى صدرها كجوهرة ثمينة ،
حاولت ان تقرأ فيه ، أن تصبح متعلمة
بين لحظة واخرى بدون مدرسة ومعلم ،
لكن الحيرة غلبتها واعادت اليها
حقيقتها فهي لا تستطيع ان تميز حرفا
من آخر ، وما هذه الكتابة الارموزا لا
تفقه منها شيئا ، عليها اذن ان تنظر
الى الصور فقط ، وكانت خيبتها كبيرة
عندما وجدت الكتاب معكوسا بين يديها ،
التفتت الى باب المدرسة القريب منها
ولسان حالها يقول :

" هذا الباب واسع عريض ، وعجبا كيف
يضيق بي وحدي ؟ لماذا لا اقف كل يوم مع
الرفيقات اردد نشيد الطلائع ، واخذت
تدندن الكلمات التي حفظتها من الصدى
القادم مع نغمات الصباح ، تنهدت
وقبعت من جديد تكتم حسرتها ، لا شيء
يملي عليها وحدتها وفراغها القاتل .

عقدت العزم ان تجد في الكتاب
خير أنيس . مشت خلف الخراف ، ووجهها
يطفح بالامل والتصميم .

الحياة تولد كل يوم ، ووفاء
لا تحس بصرخة تلك الولادة ، ولا ترى ما

يجري في فلك قريتها سوى ظلها الصغير الذي يتمرد على الظلمة ومسافة الطريق بين الحظيرة وسفح الجبل .

من قلب الليل الآخرى دوى صوت استغاثة ، وصوت عباس الاجش يبدد العمت كان كالشور المطعون في الحلية بينهما عليها ضربا ولكما ، وهي ترتجف كالطفل المولود في العراء في ليلة مثلجة ، تستنجد ، وتكرر رجاءها ، ان يشترى لها كتابا ومحفظه ، هنا اطلقت الزوجة المصونة انذارها الحاسم قائلة (اذهبى الى فراشك يا مقصوفة الرقية مهمتك في هذا البيت معروفة ولا داعي للتفكير بغيرها ابدا) ثم اردفت (كفاك غضبا يا عباس لانه يضر بصحتك وكفاها اليوم) . مسحت وفاء دموعها ثم اندست في الفراش الممدود على الارض بصمت الاموات ، وضمدت جراحها بضماد الصبر ، وانتظرت الصباح لتهرب الى صدر الضيعة الحنون . قررت ان تمتلك حقيبة صغيرة وثوبا جميلا وحذاء جديدا .

في منتصف الليل اخذت على خشبة المسرح دور البظلة التي تتمرد على القيود ، وتنطلق بجناحي الحرية في آفاق المستقبل خارج حدود القضبان . أحلام جميلة راودتها فتنهضت من فراشها منتهجة ، تقدمت نحو النافذة ، اطلت برأسها الصغير الى الخارج كان الظلام ما يزال مخيما ، عادت الى فراشها ، غطت رأسها وتابعت احلامها اللطيفة .

استيقظت في الصباح على اصوات الاقدام الزاحفة نحو الحقول والبساتين دخلت الحظيرة وسأقت الخراف الى المرعى وصوت من بعيد الهب مشاعرها ، ذكرها باغنية سمعتها ذات يوم (راحو الحبايب وما ودعونا) اشتعل الظمأ في قلبها ، فانتفضت كلبوة جريح .

تبدل كل شيء في نظرها ، انجلست السماء واشرق الامل ، كسر الاسير اغلاله ، رفض الظلمة وخرج الى النور ، بدأت تحارب اشام الماضي وهي تحس برهبة الوحدة من خلال الفراغ الذي يقتل احلامها ومستقبلها تحس بالغربة وهي بجانب والدها مهملة كورقة صفراء سقطت في فم الجحيم ، كشجرة وجهها

يابسة في صحراء يقتلها الظمأ ، بكما تلفظها نظراته الحاقدة ، لم تتذكر يوما انه ابتسم في وجهها ، او جاملها بكلمة لطيفة تغسل صدأ همومها بعد وفاة والدتها .

عندما وقعت وفاء على عتبة الدار نظرت حولها ، رأت والدها يلاطف زوجته على مائدة الخمر ، ويقربه ابنة زوجته ، استشفت في عينيه ملامح مستقبلها المسحوق تحت عجلات رغباته ، همه الاول ان يحرك ابنانه بنهم ، كل شيء عنده ينتهي بآخر جرعة من خمرة الكأس ثم يغط في نوم عميق .

استعرضت حياتها التعسة ، عصف بها اليأس ، فلم تجد اي بصيص يوحى لها بالخلاص على يد والدها . خرجت لا تلوي على شيء ، وصلت الى النهر صديق عمرها وشاهد على شقائقها ، تبادرت الى ذهنها فكرة واحدة فقط ، قررت تنفيذها وبسرعة ..

في مخاض حياتها الجديدة ، وجدت نفسها في طريق يقودها الى باب يرفرف على ناصيته علم يستمتع بطعم الحرية ، ويلوح لها بالبداية .

مئات من الحقائق اصبحت في وسط الباحة واصوات كهديل الحمام تردد نشيد الطلائع .

لحقت وفاء ذلك العالم الجديد بروح وشخصية جديدة .

كل شيء بدا لها في قمة العطاء والجمال . البقعة مخضبة بشذا الازهار ، مكنلة بالنور والوجوه ، مبتسمة سماؤها زرقاء وارضها خضراء في عينيها يكبر الامل ، ويستيقظ الرجاء ، لا تمر فوق هضابها ريح ملوثة ، لم تصدق نفسها فتلمست جسدها ووجهها ، ..

و .. لقد نجت من مخالب الموت ، وانتصرت على غول الجهل والتخلف ، وهي الان على ارض العالم والمحبة ، على الضفة الثانية . نهضت وثيابها لم تنزل مبللة ، بسطت جناحيها كحمامة بيضاء ، ثم خطت اولى خطواتها في الطريق المضي نحو دار جدتها .

عرض وتذكّر

من ذاكرتي الى ذاكرة ولدي إياس
شعر: أحمد علي حسن

الجفن .. عن طيف .. ألما
ن رفيقه .. بوّسى .. ونعمى
ب ، وبعده .. ما زال حلمها
تبقي بياصرني .. وهمها
ب .. أعيش .. أرجافا .. ورجما
معول الايام .. هدمها

م .. أعيشها .. هما .. فهمها
من أشتكى .. صعرا .. ويتمها
مكفهر اللون .. جهمها
.. فأعطيني .. واطمى
رفه .. وانكرت المسمى
في صميم حشاي .. سهمها

طيف ألم .. وما سألت
لعب الخيال به .. فكما
حلم .. أطل مع الشسبا
حلفت لي الايام .. ان
فالى متى أنا في الغيسو
والى متى أبني ؟ .. ويعمل

أنا ما عرفت ، سوى الهممو
كان الشباب .. وكنت مثل
ورأيت وجه الحب .. لكن
وغمست فيه فمي .. ليرويني
أحبته اسما .. في معسها
ما كنت أحسبه .. سيطلق

ما أصدق الجوع الاخصص
ويهزك التهرب الخميص
من قال : اني ما أتيت
من قال : لم أشك الحيا
ثغر الرغيف .. هو السذي
أحبته .. (قوها) .. أعلن
جوع الهوى .. والحب .. ليس
من أين لي ، أ رد الخصور
من أين يرقصن للغوايصة

أترهد ذاكرتي ؟ .. وتسال
أتريدها رحي .. ومسا
صور شباب أبيك .. لكن
واترك له اليأس العنيد
بدأ الهوى صفرا .. وفيك

غش الهوى قلبي .. فصور
وظننت ما تهرب المراهف
رعمسا أديله .. واقطفه
وعرفت .. رغم الشك: أني

الحب نمام اذا
ويزيد في نقص العقص
ومفاتن الجسد المعطر
كم جن فيهما العابثون

قل ، للفم المجاج .. كم
أرد الرحيق لديك تهر
لم اغترب .. الا على
وأنا المحب .. وقيل قبل

اثم الغني .. ولم يقسا
ما اصدق الاحساس .. في

يحرك الالسم الاعمصا
اذا شكى .. سغبا .. وعدما
الليل .. أسود .. مدلهما
ة .. مرارة .. واسى .. وظلما
اهواه .. تقبلا .. ولثما
باسمه .. (نجوى) .. و (نعمي)
هو الذي .. أردى .. واصمي
الهيئ .. تجميشا .. و ضمما
والهوى .. القلب المدمى

عندها .. عما .. وعمما
حلمت بعاطفة .. ورحمى
صفه .. اعياء .. وسقما
يصارع القدر .. المعمرى
قد استحال الصفر .. رقما

حاله .. روحا .. وجشما
بارد الرشقات .. المي
ادعاءات .. وزعمسا
حالم بالحب .. رغمسا

نزل الفسواد .. عليك نمسا
ل .. اذا تكامل .. واستتما
معمر .. وترييك غنمسا
وهوسوا .. لما .. ولمسا

اسكرتني .. ذوقسا .. وطعمسا
ياقا .. ويفعل في .. سمسما
شطآنه .. فعنلا .. ولا آسما
اليوم : ان الحب .. أعصى

رف .. خافق الفقراء .. اشمسا
قلب الفقير .. اذا .. تنمى

يهوى .. لكي يعطني الحيا
يهوى الولود من الامما

أُبْنِيَّ . . . إِنَّ أَبْسَاكَ . . . لَمْ
عَرَفَ الْهُوَى نَشْرَا . . . وَذَا
لَمْ يَمْشِ فِي بَارِيْسَ مَسْرُ
هُوَ . . . بِالْخِيَالِ ، غَزَا كَوَا
وَمَضَى يَطَارِدُ كُلَّ عَصَايِيَّةٍ
يَرْمِي . . . وَلَكِنْ حَيْرَ تَنْطَلِقُ
تَبْقَى حَوَاشِيَهُ الرِّقَاقِ
حُضْنَ الْهُوَى ، وَالْحُبَّ . . . لَمْ
لَمْ يَخْفَ زَنْبَقُهُ . . . لَوْ أَنْ
أَيُّظَلُّ يَحْلُمُ ، بِالْهُوَى
كَرْمِي لَعَيْنِكَ . . . وَالْعِيُونَ
سَاعُودَ . . . يَحْمِلُنِي الْقَرِيضُ
جِئْتُ الْهُوَى صَفْرَا . . . وَفِيكَ

احمد علي حسن

ة .. بيادرا .. وغنى .. وعزما
ني .. لا التي تعطيك عقمما

يعر الهوى .. السمع الاصم
ق حلاوة اللذات .. نظما
هو الشباب .. دما .. ولحما
كب افقه .. نجما .. فنجما
المنال .. فطاش سهما
المقاذف منه .. يرمى
.. نزيرة الجنيات .. كلمى
(يجر الهوى والحب .. يتما)
عبيرها الفواح .. نما
(شعرا وموسيقا ورسما)
لهن عندي الف كرمى
الى ثغور الغيد .. وشما
قد استحال الصفر .. رقما

عصر الشهادة العربية وشعرنا العربي المعاصر أكرم جميل قنبي

يعيش العرب الان عصر الشهادة ، وتتوالى اجيالهم الاستشهادية قارعة أبواب الحرية بالأيدي المضرجة ، وقد تجاوزت بقفزة واحدة كل ركام الخسوف والتردد الذي صنعتة الهزائم ، وارتفعت فوق الواقع المتخاذل للأنظمة المريضة ، لتفرغ حق الوجود العربي الكريم ولتدفع الى الامام قافلة التحرير على مسار خلاق مستقيم نحو الهدف .

لقد بدلت أجيال الاستشهاد طبيعة المعركة مع العدو الصهيوني الماكر ، الذي اصطدم بالانسان العربي الحقيقي ، الذي برز من ركام اليأس والاستكانة ، وتحول الى صواعق بشرية تندفع من ذروة الارادة والتصميم مسددة باحكام نحو الهدف ، لتحفر في النفسية الصهيونية هوة الخوف ونزعة التراجع .

وفي الجنوب اللبناني الدامي ، كانت انطلاقة الاستشهاد ، فبعد ثلاث سنوات من الاجتياح الوحشي ، والمراوحة العربية في حلبة الاحتجاج والاقصوال واللهات وراء السراب ، نزلت الاحيال الجديدة الى ساحة المعركة مسلحة بعزمها على اختراق جدار الموت مسلحة بايمانها ، بأن تحدي الموت نفسه هو الطريق الرحب نحو الحياة ، مسلحة بحقها في سحق التخاذل ، وسد طريق التسويات ، وتوليد اقصى القسدرات الكامنة التي سجنها التردد والجبن

لاطلاقها في ساحة المصير . ولقد كانت " سناء محيدلسي افتتاحية جولة الاستشهاد البطولي في الجنوب اللبناني ، فكانت بحق عروسة الجنوب ، بل عروسة العرب . يقول والدها يوسف محيدلي : (١)

لقد رأت سناء بعينيها المجازر والموت الجماعي على يدي العدو الاسرائيلي ، ورأت مآسي أهل الجنوب الذين جاؤوا الى العاصمة بيروت بحثا عن الامان وشاهدت القصف والخراب ، وكل هذا آلمها وجعل تساؤلاتها أكبر من عمرها بكثير ، ولم أكن أدري انها وجدت الاحابة على هذه التساؤلات ، فقد كانت من النوع الصامت الذي لا يحكي أفكاره الحقيقية ابدا . كما شاهدت سناء الدبابات الاسرائيلية تسحق القرى ، وتدمر المنازل فوق سكانها ، وتنشر الموت والدمار في كل مكان وذهبت سناء مع عائلتها الى بيروت حيث شاهدت أيضا فظائع الغارات الاسرائيلية التي كانت تقذف العاصمة اللبنانية بالقنابل العنقودية والقنابل الفراغية وقنابل الفوسفور والنابالم ، ورأت كيف تتناثر الجثث ، ويتشرد الانسان بين الانقراض والخرائب ، وكيف يكتسب الناس عادات سكان الكهوف ، وتحول بركان الغضب في نفس سناء الى رغبة جارفة في الشار من الغزاة وتحويل الارض من تحتهم الى حميم ، وسرعان ما انضمت ابنة السبعة

عشر ربيعاً ، الى المقاومة الوطنية
واعدت العدة لتحدي الموت ، والوصول
الى فكرة هي ذروة من عمليات الاستشهاد
نزعج الاساس الاستراتيجي لقدرة العدو
وسطوته .

وفجأة ، أصبحت سناء محيدلي بحجم
لبنان ، وتآلق دمها ليضيء الضمير
العربي ، ويفجر ارادة الوجود الكريم
في الانسان ، ولتبرهن على نجاعة طريقها
لتحرير الارض ، ودخلت سناء بوابنة
التاريخ بوصفها تعبيراً حاسماً عن قدرة
الشعوب على تحدي المستحيل ، وتساقطت
كل الاكاذيب والممنوعات من طريق المعركة

لقد دخلت سناء التاريخ من أشرف
ابوابه ، واصبحت عنواناً لشرف القضية ،
وسمو الانسان ، ففي كلمتها الوداعية
التي نقلها التلفزيون في دمشق وببيروت
وقبرص الى الجماهير ، طلبت سناء من
جميع شابات وشبان البلاد ، الالتحاق
بالمقاومة الوطنية لانها وحدها القادرة
على طرد العدو من الارض العربية ،
وقالت : ان روحها ستعانق ارواح كل
الشهداء الذين سبقوها ، وتتوحد معهم
لتشكل تتفجر زلزلاً على رؤوس جيوش
العدو ، وأضافت : وانني احيي ككل
المناضلين في جبهة المقاومة الوطنية
وفي أممي وعلى رأسهم قائد مسيرة التحرير
الرئيس حافظ الاسد ، وتحيتي لأهلبي
واقاربي الذي اطلب منهم الاستمرار في
مسيرة التضحية والفداء ، تحرير كامل
تراب أرضنا .

لقد ردت سناء باسم عرائس الجنوب
على سياسة القبضة الحديدية التي اعلنتها
العدو ، وتابعت بعدها قافلة الشهادة
مسيرة الكفاح الوطني ، فكانت الشهيدة
البطلة لولا عبود ، والشهيدة البطلة
ابتسام حرب ، والشهداء الابطال : مالك
وهبي ، وهشام عباس ، وخالد ازرق ووجدي
الصايغ ، وعبد الله عبد القادر ومحمود
عوض المصري ، والشهيد البطل علي طلبية
حسن من جمهورية مصر العربية الذي اراد
تحدي أنظمة التخاذل والاستسلام ليؤكد
بالدم والروح عروبة مصر الخالدة .

وفي التاسع من نيسان تلون أفق
لبنان ، وأصبحت السماء غير السماء ،
والارض غير الارض ، وكانت عروس الجنوب
سناء خلف هذا الزلزال الذي قصم
ظهر العدو الاسرائيلي . زرعت جسدها في
تراب الجنوب . وحولت لحمها الى شظايا
في وجوه الاعداء . (٢)

لقد عاشت سناء محيدلي من أجل
ان تكون شهيدة بطلة ، تروي بدمها تراب
الجنوب اللبناني ، وتحول جسدها الى
قنابل وحراب ، وجهتها الى صدور الصهاينة
المغتصبين لتؤكد لهم ، قدرة الشعب
العربي على التضحية والفداء وحب الموت
من اجل غسل العار الذي لحق بالتراب
العربي والامة العربية .

لقد انطلقت سناء الى هدفها
بعزيمة ثابتة ، وقلب مؤمن ، وكتبت
اسمها بالدم على جبينها شمس الامة
العربية ، فاستحقت المجد والخلود وكانت
فاتحة شهداء الجنوب اللبناني .

عشت للثأر والفداء يا سناء
أنت شمس تزينها الاضواء
رخصت عندك الحياة فغادرت
حياة حقهها الارزاء
هلل العز يوم اقبلت كالسيل
اندفاعاً وصفق الشهداء
فاذهبي للخلود يحرسك المجد
فأنت الخلود انت البقاء (٣)

لقد حملت سناء محيدلي في قلبها
الهم الوطني ، والحق على جرائم المستعمر
وسياسته الارهابية القائمة على القتل
والتشريد ، وعندما قررت ان تكون شهيدة
الجنوب اللبناني ، كتبت بدمها ملحمة
التاريخ والبطولة ، وجسدت بتضحياتها
قيم الحق والخير والجمال ، فسمت
بتلك القيم ، وسمت القيم بدورها بها .
لقد جسدت سناء كل معاني البطولة والفداء
لأنها من امة تعشق الحرية والحق ، وترفض
الظلم والعدوان والذل والعبودية ، لذلك
وجهت براكين دمها الى حصون المعتدين
لتحرق كل اصابعهم الممتدة الى تراب
وطنها الطاهر ، والى رقاب شعبيها الابي ،
وسجلت بذلك أعلى القيم الانسانية في
البذل والتضحية والفداء ، وطلبت من
كافة المناضلين من ابناء شعبها
الشائر ، ان يسلكوا طريق الشهادة
مقتدين بتوجيهات قائدهم الرفيع
المناضل حافظ الاسد ، الذي اعلن ان
طريقنا الى التحرير هو الشهادة او النصر
شموخاً ثم تيهها يا سناء

فأهلك من عرين الاسد جاؤوا
روى التاريخ فانتشت الليالي
ووجهك بين صفحتيه السماء
فوجه الغاصب الغازي ذليل
ومن نار الجنوب به اكتبوا
فدون عطائهم صغر العطاء
ودون فدائهم صغر الفداء

لقد أهديت حافظنا سلاما
تحية كل حبيبنا سناء
فمنه مجدنا وهو المرجى
إذا ما اجتاح أمتنا الوباء (٤)

ان المقاومة اللبنانية تعتبر
رعاية دمشق اساسا لانتصارها، وطبيعتها
القومية . لقد آمنت المقاومة الوطنية ان
الانسان اقوى من الالة ، وان اجيال
الاستشهاد تستطيع التغلب على العقبات
التكنولوجية عندما ترتقي الى المستوى
الاسطوري للمقاومة ، والعمليات الاستشهادية
ليست ظاهرة فردية وذات بعد نفسي شخصي
بل هي حصيلة لتعميق ورسوخ روح الكفاح
الشامل ضد القهر والتنكيل والمجازر
الاسرائيلية ، وقد نمت هذه الظاهرة خلال
تعبئة عفوية تصاعدت من الجذور ، واتخذت
من المقاومة الوطنية وعملياتها مدرسة
قائمة ومستمرة تتطور دروسها يوما بعد
يوم ، واغتنت بالاستعداد البطولي للتضحية
بالنفس شريطة الحاق اكبر حجم ممكن من
الخسائر . وتنعكس حصيلة هذه العمليات
في حالة الخور والتراجع النفسي في
صفوف قوات الاحتلال الاسرائيلي التي لم
يعد لديها اي امل او مطمع غير الانسحاب
يقول الشاعر محمد كامل صالح في قصيدته
" نجمة الصبح " :

سنا ..

يا روضة .. من عندهم .. خضراء ..
يا وطن الحياة .. بعد الموت .. والبقاء ..
يا نجمة الصبح .. ويا بشارة الضياء ..
يا جرح شعب نازفا .. ملاحم الدماء ..
حرف به النقطة : دناوات الفداء ..
وكلمة تصورت .. هنالك .. ابتداء ..
أسطورة قرأتها .. أعراس كربلاء ..
مدت جناحيها .. فطار خلفها المدى ..
وانزاع الردى ..
واخترت قبراً .. ذلك الفضاء ..
وفي الثرى .. أشلاؤهم تناثرت : هباء (٥)

لقد تحطمت اسطورة العدوان امام
عظمة الانسان المؤمن بقضيته الوطنية ،
وانهارت أحلام الغزاة الطامعين ، عندما
رأوا أشلاء جنودهم تتناثر في العراء
والفضاء ، وان ما تشهده الساحة العربية
من بطولات وعمليات استشهاد في الجنوب
اللبناني ، وفي فلسطين المحتلة ،
واندفاع الشباب العربي من مصر وسورية
وفلسطين ولبنان وغيرها من الاقطار
العربية ، في عمليات استشهادية اضافة

لشهداء الجيش ، الذين سطروا الملاحم
في قتال العدو الصهيوني، كلها تشير
الى العودة الى الطريق الصحيح الذي
بعث امجاد الامة ، وان رعاية قطرنا
لمفهوم الشهادة خير دليل على ان الامة
العربية تمتلك منها ثوريا ، وفهمها
عميقا لمفهوم الشهادة يستند الى الجذور
الفكرية والتراثية في تاريخ الامة .

وتاريخ امتنا العربية حافل بالتضحيات
ومليء بقوافل الشهداء الذين وصفهم
القائد المناضل حافظ الاسد ، " أكرم من
في الدنيا وأنبل بني البشر " لذلك نجد
ان شهداء الجنوب اللبناني ، وفي
طليعتهم الشهيدة البطلة سناء محيدلي ،
كانوا يوجهون التحية والمحبة والتقدير
لسيادة الرئيس حافظ الاسد الذي اولى
الشهادة والشهداء كل رعاية وتكريم ،
ويحلون أبناء الامة لتعلم مبادئ الشهادة
ومعانيها من مدرسة حزب البعث العربي
الاشتراكي ، وأمينه العام الرفيق المناضل
حافظ الاسد .

وصلت تحيتك الحبيبة والخضيرة يا سناء
وصلت وأعياد الشام يرف غرتها ... الجلاء
وعلى شعار أمية .. تفتت كالشفق الدماء
قالت : وبين فجاج أحزمة اللظى يحلـو
اللقاء ..

ومع القنابل والدخان الجهم يخضر الرجاء
ومع المنية ، والمنية وحدها .. كتب
البقاء ..

أقدارنا يا معجم الشرق .. الشهادة
والفداء .. (٦) ..

ثم يتوجه الشاعر ليخاطب السيد
الرئيس حافظ الاسد ، راعي الشهادة
والشهداء ، ومعقد الامل وموطن الرجاء
ان هذا القائد الملهم هو الذي استطاع
ان يقود أمتنا على دروب النصر والتحرير
والصمود ، وهو الذي دفع الابطال الى
ساحات الشرف والخلود ، فتفجرت ينابيع
الشهادة والعطاء ، واسما دفاقة لاتنضب
من اجل تحقيق اهداف الامة ، واسترداد
الارض العربية السليبة والحقوق المغتصبة
والقضاء على التخلف والاستغلال والتفرقة ،
والتجزئة والظلم والفقر والجهل في
أية بقعة من الارض العربية .

يا فارس الشام الذي بلوائه عقد الرجاء
الشرف فيك تفجرت روياء واخضل النمماء
وتحية من صور من أشلائها بعثت سناء
يا سيدي ، وكذاك يشرق خلف كل دم جلاء

(٧)

لا تحزني ففقور الغار جارحسة
ان البغاث بأرض الصقر لا تـزرق
فكل غصن تلظى جمرة غضبـا
كل الطفافة بحر الجمر قد شهقوا
بيروت مهما غزاة الموت قد عبثوا
فيك ، وان قطعوا الاجساد اوحرقوا
فسوف يعلو لواء الشار ترفـده
نسورنا الصيد والفرسان والفرق .

(٩)
لقد توالى قوافل الشهداء في كل
موقع من الساحة مؤكدة عزم الاجيال
الجديدة على اقتلاع جذور الاحتلال وانهاء
العصر الاسرائيلي ، ومحو كل اثر من
آثاره في الارض وفي النفوس المريضة ،
ليعود الوطن حرا كالشمس نقيا كالفجر
طليقا من كل قيد ، تبنيه اجيال المعاناة
والدم والعرق ، كما حلمت به وطنـا
للجماهير الكادحة ، ووطنا للعدالة ،
والتقدم ، ومنطلقا للوحدة العربية
.. وقد انضمت الى قافلة شهداء
المقاومة الوطنية اللبنانية ، بطلة من
بطلات اتحاد شبيبة الثورة في القطر
العربي السوري ، لتروي بدمائها الزكية
تراب الجنوب اللبناني ، ولتؤكد وحدة
النضال العربي المشترك ضد العـدد
الصهيوني وعملائه ، ولتثبت ان جيلا يؤمن
بالشهادة طريقا للنصر والتحرير لن يهزم
ابدا ..

لقد جاءت هذه البطلة ، من شمال
شرق سورية العربية ، لتزرع جسدها في
جنوب لبنان المقاوم ، وحملت وثيقة
التاريخ الجديد لانباء هذه الامة وثيقة
الدم كما يكتبها بأجسادهم ودمائهم
شبيبو الثورة ، وهم يرفعون رايسة
الحزب والقائد المعلم حافظ الاسد .

ان ارض المقاومة في جنوب لبنان
لا تعرف الا لغة واحدة ، هي لغة قومية
المعركة ، وامتزاج الدم العربي ليشكل
وحدة الثورة ، وطريق النضال ، وبالتالي
طريق النصر الحتمي ، فالخندق الواحد
المشترك الذي يجمع بين السوري واللبناني
والفلسطيني في جنوب لبنان ، هو خندق
العروبة ، ولن يكون الا خندق المقاومة
والفداء والتفحية ، وأنطلاقا من ذلك ،
تعلمت " حميدة " في مدرسة حافظ الاسد ،
حقائق النضال ومضامينه الثورية ،
وابعاده المستقبلية ، وتعلمت مع جيل
البعث ، جيل شبيبة حافظ الاسد ، كيف
" أننا في سورية نتقاسم معكم الحياة
والشهادة " يا ابناء الجنوب ويا رجال
المقاومة الوطنية اللبنانية .

ان وحدة الكفاح الوطني التي
خاضها شعبنا البطل الى جانب المقاومة
الوطنية اللبنانية ، زرعت الامل في
نفوس مناضلين من اجل تصعيد العمل في
جبهة الصمود والتصدي ، والوقوف بحزم
امام الاخطار الاستعمارية التي تهدد
باحتلال الوطن العربي .

ان سورية العربية وقفت بصدق وشرف
الى جانب اللبنانيين من اجل استعادة
حقوقهم وطرد الغزاة المستعمرين من
اراضي الجنوب اللبناني ، ووقف مقاتلنا
السوري الى جانب المقاتل اللبناني ،
وقاتلا في خندق واحد ، لترتفع رايسة
الامة عالية ، وتندحر جيوش الاحتلال
ويبقى تراب الجنوب اللبناني عربيا
طاهرا :

لي بالشام حراب عانقت ألمي
وزغردت للشهيد الحر ينعتق
يصوغ للفجر آمالا محجلة
فيهدي للشداد الفارس الحـذق
رهبي " تشلى قناديلا مفرجة
ليغسل العار والارز الذي هرقوا
وهبي " زرعت بطون الارض اوسمة
جند المنون على أقدامكم مـزق
عصفورة الارز " غنت من جوارحها
ان الجنوب سيبقى الوارف الورق ..
(٨)

لقد أكد شهداؤنا الذين ساروا على
الدرب في قافلة سناء محيدلي ، واهتدوا
بلوائها العربي الذي صان العروبة وفجر
شمس الحرية ، ان شعبنا العربي السوري
الذي تدرب في معقل الشهادة والشرف وفي
مدرسة حزب البعث العربي الاشتراكي ،
اقوى من كل أسلحة الفتك والتدمير التي
يحشدتها العدو على حدودنا ، ليرهب بها
شعبنا ، الذي يفجر براكين من الجمر ،
كما تتحول ذرات تراب الوطن الى قنابل
وحمم تصفع وجه الخونة والمتآمرين
والمعتدين ، وتحرق جميع اوراقهم ،
واذا ارادت المقاومة الوطنية اللبنانية
ان تستمر في مقاومتها ونضالها وكفاحها
المسلح لتحرير ارضها ، فما عليها الا
ان تفع يدها بأيدي مناضلي البعث
العربي الاشتراكي الذين يجودون بالغالي
والرخيص في سبيل اعلاء كلمة الحق
والوطن ، والضرب على ايدي العابثين
والمخربين بأمجاد الامة والتاريخ
العربي :

سناء يا مشعلا للعرب قاطبة
أنت العروبة والامجاد والالق

وهكذا كانت " حميدة مصطفى الطاهر " النموذج الحي والخلاق للجيل الذي تربي على الممارسة الثورية والنضالية والكفاحية في منظمة اتحاد شبيبة الثورة ، وكبر بتعاليم الرفيق القائد حافظ الاسد و افكاره على طريق صياغة المستقبل ، واقامة مجتمع البنساء والتحرير : (١٠)

سقاك الفرات حليب الفدا
فجرت سيفاً روتته العدا
وفجرت فينا عيون الفدا
فمن مقلتيك الفدا ابتدى (١١)

لقد اثبتت المرأة العربية السورية انها على قدر كبير من المسؤولية لاتقل عن الرجل قولاً وعملاً ، وادركت العلاقة الجدلية بين المجتمع والحياة ، فانطلقت بكل طاقاتها في صنع مقوماتها الحياتية ، فدخلت معترك الحياة متطورة مطورة ، كما اصبحت احد روافد ثورة البعث العربي الاشتراكي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً ، فلم تعد البندقية حصراً على الرجل ، بل نزلت المرأة الى خندق الدفاع والمواجهة ، وأثبتت انها امتداد تاريخي لخولة بنت الازر ، وجميلة بوحيرد ، وامتداد للنساء وسكينة بنت الحسين ، كما حققت المرأة انجازات كبرى طالما طمحت اليها الامة العريقة واشتيت ان مقاومتها للاحتلال لا تق عن مقاومة الرجل ، فالشعور الوطني والقومي والاحساس الكبير بمسؤولية القيام بالواجب الوطني دفع المرأة العربية بالنزول الى ساحة التدريب والمقاومة ، فخلعت اثواب الزينة ، وغادت خصصلات شعرها وجه المرأة ، وكسرت طوق العادات القديمة التي كبلت المرأة بها زمنياً طويلاً ، وراحت تتدرب على احدث انواع الاسلحة لتثبت قدرتها تفوقها ، وتزحف فوق الاشواك والرمال ، لتزرع جسدها في ساحات وميادين القتال ، فترتفع راية الامة والوطن ، ومن اجل هذا كانت الشهيدة البطلة " الماظة خليل " اول شهيدة في القفز المظلي والتدريب العسكري في سورية العربية ، وفي الوطن العربي كله ، فجسدت باستشهادها قيم الوطنية والحرية ، لتعلن فاتحة الاستشهاد البطولي للمرأة العربية ، ولشبيبة هذا الوطن العربي الممتد من الماء الى الماء :

ما أعرفه ..
ان فتاة من وطني تدعى " الماظة "

خلعت اثواب الزينة وفساتين السهرات الليلية ..
وحطت فوق الهام قلنسوة الميدان
وراحت تزحف فوق الرمل وفوق الشوك
على أصعب انواع التدريب الحربي مكلفة بالغار ..

ما أعرفه .. عن الماظة ..
ان فتاة من وطني

كسرت اطواق الذهب وقيد العادات السيئة
وحطمت الحاجز بين الوهم وبين الواقع
وتخطت كل الافكار البائدة

وسارت بشموخ صوب المجد
تركز علماً أحمر في أعلى هامة جبل النار
وترفع راية نصر وشموخ فخر

لشبيبة هذا الوطن الممتد من الرمل الى الرمل ..

ترسخ قيم المرأة بالعمل
وبالتدريب وبالحرية .. (١٢)

لقد كانت الماظة خليل فاتحة شهيدات الوطن على دروب النضال ضد اعداء الحرية والانسان ، ومن القطر اللبناني الشقيق ينطلق الشاعر نجيب جمال الدين من منظار وحدة الدم والمصير ووحدة الارض والشعب ، وتوحيد المقاومة المسلحة فيوجه الاستعمار معلناً ان الشعب العربي السوري واللبناني هو شعب واحد ، قدره الوقوف في خندق واحد ، في وجه الغزوات الاستعمارية . وتقديم قوافل الشهداء من ابناء الشعب :

شهادونا ، شهداء جلق

والوغي قدر لنا .

وعدونا استعمار (١٣)

ويفتخر الشاعر النجيب بأبطال الشام الميامين الذين باتوا العيسن الساهرة على سلامة اوطان وحمائيتهم ، وكانوا كما اراد لهم قائدهم المفدى الرفيق المناضل حافظ الاسد ، شعباً يرخس الروح والدم من اجل نصره الحق ودحر الظالم ، وقد تمثلت بطولاتهم المشرفة في حرب تشرين التحريرية التي فجروا فيها ينانبيعا من النور والدم من اجل استرداد الارض العربية والكرامة العربية ، ومن اجل كسر شوكة الغزاة الصهاينة الذين اعتقدوا ان خيول العرب قد كبت ولن تقوم لها اية قائمة بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ - لقد كانت ارادة الجماهير اقوى واكبر من أساطير المحتلين وباتت اسطورة الجيش الذي لا يقهر خرافة الى الابد ، نسجت خيوط العنكبوت في

عقول اعداء الشمس والحرية ، وحطمتها
ارادة الجندي العربي المؤمن بعدالة
قضيته وحرية ترابه .
وشبول حافظ في الشام فواس
ما ضم مثل خيولهم مضمار
لا يعرفون من الزمان سوى متى
تشرين يأمر .. ان يكون الشار ؟
ولدوا مع التصحيح .. ثم ثلاثة مرت
ودوى صوت الزار .
فتسابقوا للبذل يوم دعاهم للمجد
تشرين الخلود .. وطاروا
فاذا أساطير العدو خرافة
واذا كبار المعجزات صفار (١٤)

ان القائد المناضل حافظ الاسد ،
فجر فينا عيوننا من التضحية والفداء كما
فجر فينا براكينا من الثورة الكامنة
في أعماقنا ، وقادنا الى دروب البناء
والتحريير :
سعت الى الجولان وجها مناضلا
ومن فجرك الاتي فيالق تزحف
والف ربيع من دماء نسورنا
والف صباح للشهيد يرفرف
والف من الابطال ينتظر الوغى
ليرقى الى حيث الشهادة ترشف (١٥)

ان شهداءنا الابرار منارات ساطعة
ترشدنا الى طريق الخلاص ، وتهدينا الى
دروب التضحية ، وتعمق ايماننا وتصميمنا
وعزمنا على متابعة مسيرة التاريخ العربي
الزاخر بالامجاد ، والمليء بالمفاخير .
بدمائهم كتبوا الخلود لشعبنا ، وبدمائهم
سطروا انمع صفحات المجد والبطولة ، ومن
دمائهم ستبقى راية الشهادة عالية خفاقة ،
لتحقيق الرسالة الخالدة التي استشهدوا
من اجلها ، ولحماية التراب العربي من
كل غاز ودخيل ، وقيام مجتمع الطبقة
الواحدة ، مجتمع العمال والفلاحين
والجنود العقائديين والثوريين المؤمنين
بوحدة الدم العربي :

بأبي الشباب الحاملين دماءهم
في غمرة الاحداث فوق السواح
المؤمنين بوحدة ورسالة
هي من صميم تراثها النفاح
الساشرين على حماية ارضهم
من غاصب جان ومن سفاح
الحافظين على مكاسب شعبهم
للعامل المهضوم والفلاح
زحف العروبة لن يعيق مسيره
ابدا فحيح او سعار نبساح

زحف به وطني الكبير مسؤزر
بالنصر ملء مراتب وبطاح
وطني فدتسه وتفتديه قوافل
بالمال والاولاد و الارواح (١٦)

ان قصص البطولة والشهادة ، من
المآثر العظيمة التي يعتز بها شعبنا
ويفتخر . وأبناء الشهداء ، أبناء اكرم
من في الدنيا ، وأنبل بني البشر ، ترعاهم
اليد الامينة ، والقلب الكبير الذي جعل
الشهادة والشهداء في المقام الاول ،
فكرمهم ايما تكريم ، وجعل أسرهم تقرر
في امان واطمئنان ، لا خوف ولا قلق
ولا حاجة ولا عوز .

والشهيد الذي ضحى بدمه وروحه ،
يستطيع ان يستقر في جنات النعيم وهو
قريب العين ، مطمئن على أسرته ، وعلى
كل فرد من افرادها ، لانهم يعيشون في
دفع العاطفة والحنان والمحبة في مدينة
البطولة والابطال ، في مدينة ابنسباء
الشهداء .

.. في هذه المدينة الخالدة تكمن
عظمة الشهيد ، وقدسية الشهادة وفيها
تتجسد الاهداف النبيلة للرسالة السامية
التي ضحى رجالنا من اجلها ، وفي
حدائقها الغناء ، يلح المرء الورود ،
والزهور التي تتفتح مصبوغة بدماء
الاحرار ، وتحت سقوفها تزهر ايضا
براعم البطولة التي تروي وتسقي من
معين فجرته الايدي الخيرة والعقول
النيرة التي تتجسد بالقيادة الفذة
التي تحمل على عاتقها حماية رسالة
شهداءنا الاخيار ، وضمان مستقبل وطننا
العربي الكبير ، قويا حرا منيعا ،
يحتل مكانته اللائقة به في العالم
(٧) .

يا أبتى يا عرس آمالي وعرس الموكب
ان كنت قد فقدت منك عطفك المحبب
فحافظ بات لنا أحنى علينا يا أبتى
ومنهل الفداء دوما كان دوما مشربي (١٨)

ان عظمة الشهداء من عظمة القضية
التي استشهدوا من اجلها ، وان تكريم
الشهداء يبقى منقوصا اذا لم يتوجه الى
اسرهم وابنائهم الذين هم أمانة مقدسة في
أعناقنا .

ان هؤلاء الشهداء الذين ضحوا
بأرواحهم في سبيل الوطن والانسان لجدير
بكل العرفان والتقدير .

لقد عملت القيادة السياسية في
القطر العربي السوري على رعاية ابناء
الشهداء من خلال مدارس داخلية حديثة
مجهزة بكل ما يحتاجه الطالب من أجل
متابعة التحصيل والتفوق .

ومدارس ابناء الشهداء هي احد مظاهر هذه
الرعاية والاهتمام الابويين من قبل الرفيق
القائد لاسر الشهداء وابنائهم ، ولا بد
لكل من يزور مدارس ابناء الشهداء في
دمشق وحلب .. الا ان ينظر باعجاب واكبار
الى هذه المأثرة العظيمة من مآثر تكريم
الشهادة والشهداء ، والتي غدت بفضل
تكريم القيادة السياسية ورعايتها
تقليدا وطنيا مقدسا .

ان مدارس ابناء الشهداء منارة من
منارات الحزب والثورة ، وصرح على طريق
بناء الوطن ، من خلال بناء الانسان وخلق
الجيل العربي الواعي الملتزم بقضايا
شعبه وأمتة ، المسلح بفكر الحزب
وبمبادئه الثورية .

الهوامش :

- ١- ملحق صحيفة البعث - العدد ٦٨٨٠ -
- ١٩٨٥/١٠/٦ ص ١٩
- ٢ - العماد مصطفى طلاس - صحيفة البعث
العدد ٦٨٠٢ - ١٩٨٥/٦/٢٤
- ٣ - ابراهيم البيطار - صحيفة البعث،
العدد ٦٨٠٢ - ١٩٨٥/٦/٢٤
- ٤ - محمد حسن حشمة - مجلة جيش الشعب
العدد ١٥٣٣ - ١٩٨٥/٥/١

- ٥ - محمد كامل صالح - صحيفة البعث -
العدد ٦٧٨٣ - ١٩٨٥/٥/٣٠
- ٦ - نجم الدين الصالح - صحيفة الثورة ،
العدد ٦٧٧٠ - ١٩٨٥/٤/١٧
- ٧ - نفس المصدر .
- ٨ - أكرم جميل قنيس - مجلة الجندي
العربي ، العدد ٢٩٥ آب ١٩٨٥
- ٩ - نفس المصدر .
- ١٠ - صحيفة المسيرة - العدد ٥٦٩ -
١٩٨٥/١٢/٣
- ١١ - اكرم جميل قنيس - من قصيدة - شهيدة
البعث .
- ١٢ - حسين حموي - ايقاعات من ذاكرة
الايام - ص ٧٨ - ٨٢
- ١٣ - نجيب جمال الدين - صحيفة البعث -
العدد ٦٣٥٤ - ١٩٨٥/١٢/٢٠
- ١٤ - نفس المصدر .
- ١٥ - جابر ابراهيم سلمان - من قصيدة
وليس على الاهوال غير مكافح
- ١٦ - ياسين الفرجاني - مجلة الثقافة -
العدد ٩ - ١٩٦٣
- ١٧ - الشهداء الابرار - من كلمة اللواء
محمد ملحم المدير العام لهيئة مدارس
ابناء الشهداء ص ١٤
- ١٨ - اكرم جميل قنيس - الثقافة الاسبوعية
العدد ٣٩ - ١٩٨٥/١٠/١٩

بقلم : اكرم جميل قنيس

نيران
على
القسم

سيرة فرائية سعيد أبو الحسن

مقدمات الحركة الإجتماعية ملقة ٣١

بحيث يكون عدد العصبيين في فرع الجبل قد بلغ ثلاثة الاف عضو على وجه التقريب، نحن لم نحبان نتاجر بعمل قمنا به على اعتبار انه واجب مقدس . ولم نكشف اسماء عناصرنا العسكرية اطلاقا ، احتياطا للتغيرات الممكنة ، وحرصا على أمنهم وسلامتهم في عملهم الوظيفي داخل جيش وطني فتى لا يجوز ان يكون فيه اي ولاء لغير الامة والوطن من خلال انضباطه وطاعته لقادته النازيين ، اي اننا لم نقبل لانفسنا التدخل بشؤون الجيش بعد صيرورته جيشا وطنيا صرفا ، وبعد جلاء الجيش الفرنسي المحتل .

الا ان تيارات جديدة بدأت تظهر وتفرغ نفسها - وكان لا بد ان يكون لنا موقف محدد منها :

كان بعض الطلاب الجليليين يتلقون العلم في ثانويات دمشق او دار المعلمين او بعض كليات الجامعة - وانضم بعضهم الى حركة البعث العربي الذي كان قيد

عندما نقيس الامور بمقاييسها الصحيحة نجد ان شعبنا ين لهؤلاء الذين وضعوا ارواحهم على اكفهم وقرروا تحرير محافظتهم صباح ٢٩ ايار ١٩٤٥ ، والذين نولاهم لتغيير سير الامور ، ولكننا - ربما - بقينا نعاني من الاحتلال ردحا اخر من الدهر ، حتى يقوم فريق اخر من شعبنا المناضل ، الذي لا يمكن ان ينام طويلا على ضيم ، باتمام واجب التحرير . . . واكرر ان الكثيرين من الانصار والاصدقاء كانوا في فعاليتهم مثل احسن المنظمين واحيانا افضل من احسنهم - ولكي ازيد القارىء علما بما تم داخل فرع العصبة من ايار ١٩٤٥ حتى ايار ١٩٤٦ ، اقول ان عدد المنتسبين الى الفرع بلغ ٢٥٨٢ عضوا منهم ٥٦٩ من العسكريين وقوات مسلحة ، والباقيون من المدنيين ، وهناك عددا يستهان به - لا يقل عن خمسمائة عضو - من الذين حالت ظروف عملي في النصف الثاني من ١٩٤٦ ، وفي عام ١٩٤٧ دون تسجيلهم ،

التأسيس ، ولدى اول احتكاك بالطبـلاب
البعثيين تبين لنا انهم حلفاء طبيعيون
ليس بيننا وبينهم من خلاف من حيث
الاهداف القومية البعيدة المـددى
(الاستراتيجية بتعبير اليوم) على
الرغم من بعض الاختلافات المرحلية
(التكتيكية بتعبير اليوم ايضا) ،
وبعضهم كانوا قد مروا بالعصبة قبل
انتمائهم الى البعث (الذي كان ما
يزال حركة فكرية وليس حزبا) - وقد
تعاونوا في مجالات نضالية مختلفة ، وكنا
نسير في التظاهرات معا ، لمناسبة
ذكرى وعد بلفور مثلا ، او احتجاجا
على اسر الحكومة الوطنية في لبنان ،
فهم لا يعرفون ان لفظة (بعث) واردة في
ميثاق العصبة بالذات - ولكنهم كانوا
يحرصون نشاطهم بين صفوف المثقفين عامة
والطلاب منهم خاصة - بينما كانت العصبة
اوسع قاعدة واعضاؤها اكثر تنوعا
هذا في العاصمة ، الا اننا نحن فـي
الجبـل ، لم نتوسع الا داخل صفوف الشباب
وكنا مضطرين الى اكثار عدد المنتسبين
لمقاومة التيارات المضادة : المستعمر
وحلفائه ، ثم كثيرون استغلوا هذا الحدث
القومي العظيم فراحوا ينشرون اسمائهم
وصورهم في الصحف على اساس انهم من
عناصر التنظيم الذي قام بالعملية
وبعضهم الف الكتب ليعطي نفسه كل شيء
ويحرم غيره من اي شيء ، وهنا اقف مع
ضميري امام التاريخ وامام شعبنا لاقول:
ان لا صحة لاي ادعاء خارج هذه الاسماء ،
الواردة في السجل المحفوظ والمحفوظ
منذ عام ١٩٤٥ وكل ما كتب خلافا لذلك فهو
كاذب مختلق ولا سيما كتاب مذكرات ضابط

عربي في الجيش الفرنسي للمرحوم ابوحنس
الصباغ ، عن موضوع ٢٩ ايار بالذات
وكتاب فؤاد يوسف الاطرش ، الدروز وما
جاء فيه عن الحركة الشعبية ، وانا آسف
ان توجد اقلام يطيب لها الاختلاق والتزوير
والتزييف في قضايا تاريخية يعالجونها
كما يعالجون الحكايات والاساطير واحلام
اليقظة ، لقد آن للحقيقة ان تظهر بلا
تزوير ولا تزييف ولا زيادة ولا نقصان ،
وآن للحق ان يعاد الى اصحابه الحقيقيين
لا ادعيائه المزعومين ، فقد انتفع
بالحدث من انتفع وتاجر به من تاجر وقد
آن لنا ان نقول كما قال الشاعر :

" فياليت القتل يعود " ليعرف من بكى
ممن تباكى ..

يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٤٥ الساعة
الخامسة مساء ولد ابني الثالث " رافع "
وها لا بد من وقفة عائلية تلقي ضوءا
على مجرى الاحداث الخاصة .
كانت المراسلات بيني وبين العم رافع ابو
الحسن المهاجر الى الولايات المتحدة
الاميركية مستمرة منذ ايام الدراسة .
وكان يمدني ببعض المعونة المالية من
وقت الى اخر ، هدية رأس السنة ، مثلا ،
وكان شديد الاعتزاز باسم " رافع " من
ناحية تاريخية قومية - ومن ناحية
انتساب فرعنا العائلي اليه . وعلى هذا
فقد راح يرسل المرحوم الاستاذ مصطفى
الرافعي ، وبعض الـرافعي في طرابلس
(لبنان) معتقدا انه لا بد ان تكون
هنالك صلة قريى بين فرعنا العائلي هذا
وآل الرافعي حيثما كانوا . وعرفت منه
ان الاستاذ الرافعي وافقه في كثير من
الاراء واطلعه على معلومات تؤيد القربى

على أساس ان ال رافعي لهم علاقة انتماء الى عائلتنا ، علاقة لم اعرف كيفيتها ولم اطلع على المراسلات الدائرة بين العم حسن وبينهم .

وكان العم حسن شديد الاهتمام بالادب والادباء وكثير المطالعة ، عنده مكتبة غنية تحتوي على كل الكتب التاريخية والادبية المشهورة حتى الاربعينات ، وكان من المهاجرين الواعين قوميا الذين يتابعون الاحداث الوطنية ويسهمون في مد الثورات والحركات الوطنية بالمال والتأييد - وقد زاد اهتمامه بي حينما صار يطالع مقالاتي في الصحف - فضلا عن رسائلي المطولة اليه - وقد رغب الي ان اسمي مولودي الجديد (رافع) احياء للذكرى الحبيبة الى نفسه ، وقد لبيت رغبته ، في سعادة لاتوصف ، وكان قد بحث الموضوع ذاته مع الاخ الدكتور حسين ابو الحسن (ابن اخيه) فسمى ابنه (رافع) ايضا ، وهكذا اصبح لنا رافعان بدلا من رافع واحد ! الله عمرهما ، وقد حققا كل ما بنيناه عليهما من آمال فلقد كانا بعض الحلم الذي اغمرني عليه العم حسن عينيهِ ، عندما غادر هـذِهِ الدنيا الفانية .

كنت ابحت مع العم حسن في رسائنا المتبادلة ، موضوع انتقالي من الجبل ، موضوع الهجرة الداخلية ، الى دمشق كتجربة ، واذا لم تنجح التجربة ، فالى القامشلي مثلا مبدأ الهجرة من حيث هو مبدأ كان متفقا عليه لاسباب كثيرة ، ليس اقلها ضيق مجال العمل بالمحامة ، . . الطموح الى الخروج عن منطقة ضيقة مقفلة ماديا ومعنويا ، الى العاصمة حيث

توهمت ان محال العمل اوسع ، وان التمرکز سهل ، ومن اجل تنفيذ الفكرة كان لا بد من مساعدة تمكيني من تحمل نفقات الانتقال ومن الانفاق بضعة اشهر قبل ان تصبح لي موارد في مقرّي الجديد .

وارسل الي العم حسن مبلغا من المال فانتقلت الى دمشق ورتبت اموري على النحو التالي : استأجرت جزءا من منزل في حي الشيخ محيي الدين : غرفة ارضية لاستقبال الزائرين وغرفتين ومطبخ وحمام في الطابق العلوي ، وكان جارنا صف الضابط المرحوم توفيق حسن حاتم الذي استشهد بمعركة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وكان من رفاقنا في العصبة - واتفقت مع الاستاذ تاج الدين الجندي احد المسؤولين في العصبة على ان احتل غرفة في مكتبه الكائن في السنجق دار مواجه مدخل القلعة الحميدية في الطابق الثالث من دون ان يكون بيننا علاقة مشاركة ، كل يعمل لحسابه - وكان المرحوم الاستاذ فهمي المحائري قد حصل على امتياز لاصدار جريدة (الحضارة) اليومية ، وشعرت بأنه في ضائقة مالية فأسهمت معه بألف ليرة سورية فضعفت ميزانيتي لان هـذا المبلغ كان يساوي نصف ما املك واحتفظت بعلاقتي بمحاكم السويداء لتصفية دعاوي القائمة وعدم التخلي عن الصلة بالاهلين وبالرفاق الشبان بخاصة ، وصرت اعمل صار عملي للجريدة يستغرق اكثر وقتي احررها ، اصحح (بروفاتها) ابقى من الساعة السابعة صباحا حتى الساعة الخامسة بعد الظهر حين تخرج الجريدة الى الشارع ، فأخذ عددي واعدود الى البيت لاستريح ، والذهاب والاياب كانا بالحافلة

الكهربائية (الترامواي) واذهب الى السويداء يوما او يومين في الاسبوع فأصرف الدعاوي وانهي المشاكل ، اما في دمشق فلم اوفق في عمل المحاماة : اذ تبين لي ان المحامي المستجد في المدن الكبرى يجب ان يكون له شريك اقدم منه ، وان يكون هو متفرغا لا تشغله جريدة ولا غير جريدة ، وان يكون له اصدقاء ودعاة ، ولم اكن مستعدا لشيء من ذلك ، وحينما تعبنا من بعد المواصلات في الشيخ محيي الدين انتقلنا الى الحبوبي المحاذي للشعلان حيث استأجرنا بيتا مستقلا لاننا ايضا لم نشعر بالراحة والهدوء في منزل مشترك ، وصمدنا نحو سنة على هذه الحال ولكننا شعرنا بأننا فشلنا في التمرکز في العاصمة ، فكان لا بد من العودة الى الجبل ولا سيما ان الانتخابات الجديدة بدأت تلوح في الافق ، فعدنا وكان العود احمد .

هذه اللوحة من الحياة العائلية لا تمثل سوى زاوية محدودة من نشاطي خلال هذه الفترة - والحقيقة ان من اراد ان يعرف ماذا كتبت وماذا حدث من شؤون سياسية عامة تلك السنة ١٩٤٦ يحتاج الى مراجعة الصحف وقراءة مقالاتي فيها : باسمي الصريح ، او بتوقيع " جهينة " ، تحت عنوان (الخبر اليقين) وهي الزاوية ذاتها التي كنت احررها في الجبل تحت عنوان (المجالس والمضافات) بتوقيع " جهينة " ايضا ، عليه ان يراجع ايضا ما نشرته في جريدة الزمان العراقية وجريدة الاحرار الدمشقية وفي الصحف والمجلات الاخرى .

لقد اتيت لي تلك السنة ما لم يتح

لي من قبل : ففيما عدا مقالاتي فسي المكشوف والبيانات والخطب السياسية لم يكن بعض ما اكتبه يصل الى القراء كما هو : بل كان كثيرا ما يعدل او يحرف وكان ذلك يحز في نفسي واصبر لعدم وجود بديل .

كنت عام ١٩٤٣ وضعت مسودة كتيب بعنوان (ما بعد الحرب) ضمنته افكاري الاشتراكية ، وقلت ان حل جميع مشاكل العالم بعد الحرب سيكون بالنظر امام الاشتراكي ، وحددت موقفي من الاشتراكية على اساس قومي ، بعيدا عن الاممية التي كانت الشيوعية متمسكة بها كثيرا في تلك الايام - وقد ارسلت مسودة الكتاب الى الشيخ فؤاد حبش لعله ينشره في منشورات " دار المكشوف " فأجابني بأن مثل هذه الافكار سابقة لاوانها ، والقراء لن يقبلوا عليه وربما سبب لي بعض الازعاجات - واعاده الي . وفي كانون الثاني وشباط عام ١٩٤٦ ، وضعت بدمشق كتاب " ايها العربي " ضمنته ككل تصوراتي للدولة العربية الواحدة وللمجتمع العربي التقدمي ، وارسلته الى بغداد ، الى مجلة " عالم الغد " عن طريق الاخ الاستاذ صبيح الغافقي ، الذي كان له كل الفضل في نشر مقالاتي في صحف العراق ، منذ كان محرر في جريدة الزمان ، وقد عزمت مجلة عالم الغد على نشر " ايها العربي " واعلنت عن ذلك وسجلت تحت عنوان الكتاب - من منشورات عالم الغد رقم ٨ - ثم بعد فترة تراجعست الدار عن النشر وما عدت اذكر الاسباب ، وكنت قد نشرت في عالم الغد مقالة ذاع صيتها آنذاك بعنوان : " العرب يبين شعوبية

القرون الوسطى وأممىة القرن العشرين " وقد لخص المرحوم الدكتور طه حسين هذا المقال في المجلة التي كان يصدرها آنذاك (عام ١٩٤٦) واذكر ان بعض المحامين العراقيين ذكروني بهذا المقال بعد ثلاث عشرة سنة ، خلال مؤتمر المحامين الذي عقد في بيروت عام ١٩٥٩ .

سأستعرض اهم الاحداث التي جرت عام ١٩٤٦ وكانت لي بهاملة . كانت الاحزاب المعارضة للكتلة قد شكلت تجمعاً باسم اتحاد الاحرار ، وكان مؤلفاً من عصبة العمل القومي (فهمي المحائري) جماعة الاحرار (منير العجلاني) الدكتور سامي كباره والدكتور صبري القباني ، وكان الدكتور سامي كباره ذا قلم امضى من السيف في جريدته (النضال) وعدد من كبار المستقلين امثال الاستاذ سعيد حيدر (رئيس مجلس الشورى سابقاً ورئيس حزب الاحرار والاستاذ نبيه الغزي المحامي الذي سيصبح قاضياً ثم رئيساً لمجلس الدولة فيما بعد) والاستاذ سعيد محاسن محام ووزير سابق والاستاذ نزهة المملوك والامير جعفر الحسني الجزائري رئيس المجمع العلمي العربي فيما بعد) .

والاستاذ علي بوظو (من شباب حزب الشعب فيما بعد) والاستاذ زكي الخطيب - وزير العدل السابق - وكان يتعاون مع هذا التجمع حركة البعث الاشتراكي ، والحزب العربي الاشتراكي .

كان هذا التجمع قد اتخذ لنفسه مكتباً في شارع العابد ، وكانت اول مناسبة سياسية لظهوره هي ٨ آذار ١٩٤٦ ، ذكرى اعلان استقلال سورية ووحدتها (المؤتمر السوري) والقي الاستاذ فهمي

المحائري خطاباً عنيفاً هاجم فيه الحكم على كل مستوياته ، والقيت خطب عديدة ، وقد كان لي دوري ايضاً فالقيت خطبة تتغلب فيها الخطوط القومية المستقبلية على الخطوط الانية المحلية - وقد سمعت بعض القوم يتهامسون (ترى هل سيخلقون لنا زعامات جديدة) ؟ .. اذن هكذا .. هذا كل ما يهم هؤلاء الناس : زعاماتهم وهذه الزعامات يجب ان تكون دمشقية معروفة والا فهي مرفوضة مبدئياً ، ويومها ادركت الاسرار كلها : ادركت لماذا يتحدث المؤرخون عن ميسلون ولا يتحدثون عن المزرعة ، ادركت لماذا يعتمدون على معاركنا الرائعة خلال العهدين العثماني والفرنسي ، ويبرزون اقل تظاهرة تجري في دمشق ولو اشترك فيها عشرة من الصبية انها عصبية اقليمية ، عصبية عمياء مغرصة هي مرضنا ، نحن العرب ، وهي التي ستكون سبب كل هزائمنا الداخلية والخارجية .

وكانت المعارضة تشتد وتنسحق اعمالها : فالانتخابات ستجري عام ١٩٤٧ ، ويجب ان يعدل قانون الانتخاب قبل ذلك ، وهذا موضوع رئيسي : فبدلاً من انتخاب الوجهاء ، سيكون الشعب هو الذي ينتخب كل مواطن عن نفسه ، مباشرة وبلا وسيط ، فمعركة الانتخابات على درجة واحدة معركة اساسية يجب ان تخاض ..

وكانت " الحضارة " والنضال " ، رأس الحربة في هذه المعركة الى جانب " البعث " وبيانات الاحزاب ، وحدث مرة ان اوقفت جريدة النضال للدكتور سامي كباره ، فحصل الدكتور صبري القباني على امتياز جريدة يومية هي (النضال) ،

وراحت تصدر بدلا من النضال فلم يكلف الامر اكثر من ازالة نقطة من جميع كليشيات النضال .

ولكن الحكومة من جهتها استشرت في القمع ، ففي يوم ٩ ايار ١٩٤٦ الساعة الحادية عشرة والنصف اعتقل الاستاذ فهمي المحائري بتهمة المساس بمقام رئيس الجمهورية والهجوم على الحكم . واحيل الى محكمة البداية الجزائية ليحاكم موقوفا - وكان مبنى المحكمة - قبل بناء القصر العدلي - مجاورا لساحة الشهداء من الشمال ، وكانت تظاهرة للمحامين ضد الحكم قل مثيلها - فقد تطوع للدفاع عن الاستاذ المحائري نحو خمسة وثمانين محاميا من ابرز المحامين في سورية ، آنذاك ، ممن بينهم على ما اذكر الاستاذ سعيد محاسن ، الاستاذ نبيه الغزي ، الاستاذ فيصل ضمة الاستاذ تاج الدين الجندي ، الاستاذ زكي الخطيب ، وغيرهم ، وكانت الجلسة الاولى بتاريخ ١٥ ايار والثانية في ١٦ ايار - وقدم طلب لاخلاء سبيله بكفالة فلم يقبل الطلب - وهنا كان لا بد من تحرك على مستوى اخر - وكان لا بد من اكراه الحكومة - وهي الخصم الحقيقي - بطريقة الضغط الشعبي . فذهبت الى السويداء واعدت برقية شديدة اللهجة فيها دفاع عن حرية المواطنين مع عبارة (يجب اخلاء سبيل فهمي المحائري) وحمل البرقية المرحوم جميل لوكاش الى سلطان الاطرش ، قائد الثورة السورية الكبرى ، فوقع البرقية وطيرت الى دمشق ، وبعد ٢٤ ساعة من وصول البرقية الى رئيس الجمهورية اخلي سبيل الاستاذ المحائري

وفي جلسة المرافعة تعاقبت على منبر الدفاع اثنا عشر محاميا كنت احدهم وقد اغتنموا الفرصة ليقولوا في الحكم والحاكمين مالم يقله مالك في الخمر - وما زلت اذكر كلمة اعجبتني للاستاذ فيصل العضة حين قال ، ما معناه انه لا يستغرب ان يلاحق امثال الحاكمن امثال الاستاذ فهمي المحائري ، فقد انتهت الجهاد بالنسبة اليهم ، ولم يعدوا يرون اي مبرر للنضال ، ماداموا قد وصلوا ولهذا يرون في نضال الاستاذ المحائري ورفاقه من اجل مستقبل افضل لكل الشعب شططا لا يجوز التساهل فيه ، وتهديدا لرويتهم الخاصة يهزها ويملوهم قلقا على طمأنينتهم الخاصة .

وكان اخر جندي فرنسي قدجلا عن الاراضي السورية يوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ واصبح الحكومة مكشوفة ، وبمواجهة الشعب مباشرة ، (المخبا بان) كما يقولون - فلقد كانت الاخطاء والاساءات تنسب سابقا الى الاجنبي المحتل ، اما الان : فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين " ها انتم تمسكون بايديكم قاليد الحكم ، فماذا اعددتم لصالح هذا الشعب ؟ ..

بعدها اخلي سبيل الاستاذ المحائري وقضى فترة مرض في مستشفى السادات ، قامت مجموعة كبيرة من المعارضة بزيارة لسلطان في منزله في القرية ، وكنت قد اعددت الترتيبات اللازمة لهذه الزيارة ، واعدت لهم وليمة غداء باسم " فرع العصبة " في الجبل ، وكانت الزيارة ناجحة والتفاهم تاما على الخطوط العريضة لسياسة المرحلة - وقد خاطبت قائد الثورة - بحضور الزائرين - قائلا:

لا نريدك ان تعتقد اننا نزجك في معركة سياسية لصالح حزب او فئة - بل كل ما فعلنا اننا أتيناك برجال يعترفون لك بالجميل لانك بقيت الشجاع الوحيد الذي يقول كلمة الرجال ليرد بها كيد اشباه الرجال ، فانت وما تقرر ، وانت ومسؤوليتك وكنت ايضا قد قمت بالتمهيد لزيارة اخرى عدد افرادها محصور : ما زلت اذكر من بينهم الاستاذ سعيد حيدر ، ، ولما تولى صبري العسلي وزارة الداخلية في وزارة سعد الله الجابري واصدر المرسوم التشريعي رقم ٥٠ الذي يصادر الحريات ويجعل من وزير الداخلية نوعا من ديكتاتور تمهيدا للسيطرة على معركة الانتخابات القادمة ، جاءني الاستاذ ، سعيد حيدر ومعه الاستاذ نزهة المملوك ، جاءني في منزلي المتواضع في السويداء وبسطوا الي فكرتهما وخلاصتها : ٠٠ ان المرسوم ٥٠ بحاجة الى وقفة من سلطان مشابهة لوقفته من قضية الاستاذ فهمي المحائري . وذهبنا الى القرية وعقدنا اجتماعا سريا في غرفة سلطان الخاصة وشرحوا له الوضع وقالوا له : اذا بقينا ساكتين وظلت الحكومة سادرة في غيبيهما فسيأتي يوم نترحم فيه على زمن الانتداب ، والاحتلال ، واستجاب سلطان ووافق على ان يوقع بيانا ينشر في الصحف ويوزع على اوسع نطاق ، واتفقوا على ان نرسل اليه البيان في اليوم التالي لتوقيعه . لقد كتبت في حياتي اشياء كثيرة ذات اهمية بالغة ، مقالات ، بيانات سياسية ، قصائد ، كل شيء ، الا انني لم اشعر بكامل المسؤولية النضالية كمواطن مثلما شعرت يوم انشأت بيان سلطان

لتهديم المرسوم ٥٠ كان علي ان اتحدث بالدساتير والقوانين وحدود سلطنة الحكومات وحقوق الشعوب ، وكان علي ان اهدد بلسان رجل يعرف الجميع انه يقول ويفعل ، وحين اعددت ارسلة مع رفيقنا واخينا السيد كرم الحناوي فعاد به موقعا من سلطان يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٤٦ ويوم ٧ تشرين الثاني اوصلته الى دمشق فنشر ووزع على اوسع نطاق ، واطاح البيان بالمرسوم ، وقال الاستاذ سعيد حيدر في جلسة خاصة لبعض اخوانه : انه لم يقرأ على كثرة ما قرأ مثل هذا البيان الجامع بين الحقوق والسياسة والادب جميعا ، ولم اتوقف عند هذه المحطة الصغرى ، ولم اتبجح ولم اقل لاحد انني كاتب البيان ، فانا اناضل ضد الطغيان ، ولا يجوز للمناضل ان يرى شخصه في المعركة . اوصلت البيان الى دمشق في منتهى السرية وانا مسافر الى لبنان مع وفد من الجبل لحضور كتاب رفيقنا الاستاذ هلال رسلان على الانسة سلوى شقيقة المربية الكبيرة والادبية المعروفة الانسة عفيفة صعب في عاليه ، قضينا تلك الليلة ٧ - ٨ تشرين الثاني في بيت ال صعب ، وفي ٨ تشرين الثاني نزلنا الى بيروت ، حيث قمنا بزيارة الامير شكيب ارسلان ، وكانت صحته معتلة بعض الشيء ، وكانت المرة الاولى التي ارى فيها امير البيان عن كذب ، اذ انني حينما رأيته عام ١٩٣٧ يوم عاد من منفاه في سويسره ، رأيته من بعيد ، واعجبني في الامير شكيب ذاكرته القوية فقد سأل عن اشخاص يعرفهم من الجبل فردا فردا ، وسأل كل واحد منا عن عمله ودراسته وتطلعاته ،

وكانت هيئته تحكي حكاية نضاله الطويلة الطويلة وهو يملأ المجلات مقالات سياسية، ويصدر الكتب ويقوم بالرحلات ويتوسط بين الملوك العرب لحل خلافاتهم .. ويشمل نشاطه مشرق الوطن العربي ومغربه على السواء ، كما يشمل العالم الاسلامي في نظرة جامعة نادرة المثال ، وعدنا الى عاليه فبتنا ليلتنا في منازل آل رضوان وهم ارومة آل ابو عسلي ، رضوان في السويداء ، وعدنا الى دمشق يوم ٩ تشرين الثاني ، وكنت قد بدأت أشعر بتعب العينين ، فراجعت الدكتور جميل كباره في ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٦ ووصف لي نظارة تسلمتها صباح ١٢ تشرين الثاني وكان اول عهدي بالنظارة التي لازمتني بعد هذا التاريخ طوال عمري ، وعُدت الى بيروت لعمل مستعجل ، ورجعت يوم ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٦ ، وكانت قد جرت مظاهرة طلابية يقودها شباب حزب البعث ضد الحكومة وممارساتها الدكتاتورية ، فأصيب في المظاهرة الطالب نسيب بن سليم خطار وادخل المستشفى ، وتوفي شهيدا ، وكان مآتمه يوم ١٤ تشرين الثاني ، فألقيت خطابا في المآتم حملت فيه على تصرفات الحكومة وتماديها في طغيانها .

كان هذا التحرك كله على مستوى السياسة الوطنية العامة ، فـمـاذا فعلنا لصالح محافظتنا عام ١٩٤٦م ؟ كنا قد اصبحنا قوة كبرى مهيمنة فاذا لم نجد ما يشغلنا فقد تـوـوـدي كثرتنا الى مخاطر . ولذلك كان علينا ان نوجد في هذا المجتمع الريفي شبه

البدائي وما نهتم به ويملاً اوقاتنا . فشجعنا المطالعة واوجدنا مكتبات ، متواضعة في كل نقطة ارتكاز تقريبا ، وشجعنا المسرحيات (الروايات التمثيلية الهادفة ، وشجعنا استكمال الدراسة بالمراسلة ، او الاعداد لبرامج الشهادات المختلفة عن طريق الدراسة الحرة ، فكم من واحد من العصبيين درس على نفسه جميع المراحل التالية للمرحلة الابتدائية : فصل على المتوسطة ، ثم الثانوية ، ثم الجامعية ، لايهمه كبر سنه ولا تقف في طريقه عقبة مادية او غيرها ، وبعضهم بعد الثانوية التحق بالكلية العسكرية او باحدى كليات الجامعة وتابع دراسة جادة ، وحين كنت ابحث مع احدهم كنت اقدم نفسي نموذجا لهم : اذ كنت اول واحد من ابناء الجبل يدرس الحقوق وهو يعمل ، ثم اخذ شبان كل قرية يعتنون بنظافتها فيرفعون الحجارة من الازقة ، ويشقون الطرق ويرصفونها داخل القرية ، وعيون الجيل القديم ترقبهم ساخرة لبعض الوقت ، ثم معجبة مشجعة ثم متعاونة .

ولكي تعم روح العمل المنتج المجتمع بشقيه : الرجال والنساء ، اوجدنا حركة صنع سجاد شاملة ، وحياسة ألبسة صوفية متنوعة ، فقد نظمنا هذه السنة ١٩٤٦ مسابقتين احدهما لصناعة السجاد والثانية لحياسة الالبسة الصوفية ، وجعلنا الجائزة الاولى مائة ليرة لمن تصنع اكبر عدد من السجادات في عام واحد ، وخمسين ليرة لمن تحيك اكبر عدد من الالبسة الصوفية لعام

واحد ، لقد قصدنا الكمية هذه السنة على ان تكون سنة ١٩٤٧ للنوعية ، ولكي نضمن عدم الغش اشترطنا مواصفات معينة ان يكون الصوف من الصوف الجبلي المغزول والمصبوغ محليا ، لاعطاء هذه الثروة المهمة ما تستحقه من أهمية ، وان ينسج في صلب السجادة او قطعة اللباس الصوفية اما عبارة مسابقة عصبة العمل القومي لعام ١٩٤٦ واما شعار العصبة المكونة من حرفي (ع) كوفيتين متصلتين يربطهما حرف (ق) كوفي ايضا مع تاريخ ١٩٤٦ ، هذا ما اشترطناه كحد ادنى ، اما النتائج فكانت مذهشة وفاق كل تصوراتنا ..

لقد شاهدنا اواخر السنة عند استعراض النتائج سجادة نسج فيها النشيد الوطني السوري (حماة الديار) بكامله وسجادة فيها خريطة الوطن العربي وسجادة فيها خريطة سورية مع النشيد الوطني وابيات من الشعر العربي القومي ومن يبحث بين اوراقه لا بد ان يعثر على رسوم فوتوغرافية لبعض هذه السجادات ولكي نشرك نساء البيت جميعا في العمل والاهتمام به ، تساهلنا فقبلنا ان تحسب

جميع السجادات المصنوعة وفق هذه الشروط في البيت الواحد ، على انها عمل امرأة واحدة ، وكانت النتيجة ان التي فازت بالجائزة الاولى للسجاد صنعت اربع سجادات في السنة ، والتي فازت بالجائزة الاولى للملبوسات الصوفية عملت اربع عشرة قطعة في السنة من اسعديام حياتي كانت تلك الايام التي طفت فيها ورفاقي على البيوت لنستعرض هذه التحف الرائعة ، يكاد الانسان لا يصدق ما يرى بام عينيه : أكل هذا تستطيع ان تصنعه بنات هذا الجبل المحروم ؟ لقد انتقمت الان للمشهد الذي المني روعي بعد الثورة ، مشهد البنات الراجعات من صلخد بعد قيامهن باعمال الخدمة المنزلية لقاء قروش معدودات ، او اللواتي رأيتهن في بيروت يقمن بالعمل ذاته ، اذ كنا نحن حفنة من الشبان الفقراء نستطيع ان نفعل هذا فكيف لو تبنت الحكومة هذه المشاريع واستلها المعامل ومولتها؟

مكان - تلك الصخرة التي عرفها « سترانا » جيدا وصاد يفكر بها دائما .

وفكر « سترانا » . طويلا . . .

ان أول شيء سوف يعمل حالما يبرز النهار هو ذهابه الى أحد كرومه الثلاثة . . . يربط الصغير من كرماتها الى عصيها ، ويرش نباتها بسلفات النحاس - أو بالسلفور فقط ، حسبما يراه مناسبا . أو ، فيما يتعلق بكرمه الجديد بالقرب من الصخرة الرمادية ، فانه سيزيل وعورة أرضها بوصة بوصة . . . يحفر الارض بمعوله ويكسر الحجارة بمطرقته ، أما الصخور الكبيرة فسوف يستعين بالاسفين عند اقتلاعها من جذورها . . . وهكذا يعمل في تمهيد أرضها حتى الساعة التاسعة من صبيحة كل يوم . ويظل دائما يفكر « بالصخرة البيضاء » . . . وعند الساعة التاسعة - أو حتى قبلها - سوف يجهز كل أدواته ، الاسفين والمحول والكيس ويدخله الازميل والمطرقة الصغيرة الثقيلة ؛ كل هذه الادوات ستكون جاهزة . . . يضعها على ظهر حماره الصغير ويذهب بتؤدة الى غابة السنديان .

★ ★ ★

تسارعت قرعات قلبه عندما بلغ ذلك المكان في القسم السفلي من الغابة - المكان الذي تلاشت منه أشجار السنديان - وهي القطعة التي دأب على العمل فيها منذ الخريف الماضي . حفر نطاقا حول صخرة كبيرة ، ثم نسف بالديناميت قطعة شديدة الصلابة من الصخور المتكومة فوق بعضها على هذا التل ، كما تتكوم الارغفة الكثيرة في الفرن . . . كان حجم هذه القطعة الصخرية يزيد على المتر المكعب الواحد - حجرا نظيفا صافيا - جانبها المعرض للهواء رمادي اللون ، أما بقيتها فكانت بيضاء كيباض جوف الفطره تتخلله سطور حمراء . . . وكان جانبها المقطوع من بقية الصخرة ساخنا شاحب الصفرة . . . كانت تتراعى لـ « سترانا » كلما اقترب منها وكأنها حبة فاكهة ضخمة أنمتها الارض بطيها وغذتها الشمس بأشعتها ، وأنعمشها النسيم العليل بلمساته .

كان « سترانا » في كل مرة يذهب فيها الى هناك يسير حول هذه الصخرة الدائرية متعجبا من كيفية تكوينها بهذا

الصخرة البيضاء

قصة : جيكونيلاف كاليب
تقريب : محمد الخطيب

كان سفح الجبل شديد الانحدار ، لكنه لم يكن صخوريا اذ ثمة طبقة ترابية كانت تغطي صخوره . . . وكان يكسو الطبقة الترابية بساط كثيف من العشب ، به سندسية أخاذة واتقان في الطلعة كأنما نسقت الطبيعة نبتة بعناية فائقة .

وهناك على بعد لا بأس به باتجاه القمة وعلى الجانب الشمالي منها نبتت أشجار السنديان والدردار . . . كانت رؤية الصخور نادرة ، باستثناء أعال رمادية ملساء كانت تظهر هنا وهناك . . . رماديتها غامقة كأنما الصخر قد غطي بقشرة شجر سميكة .

كانت هناك صخرة فريدة في لونها ونوعها ، تختلف عن صخور التلال الجرداء بل تختلف عن كل الصخور في أي

الثقل وهذا الحجم - إذ لم تكن كبيرة كثيرا ولا صغيرة كثيرا -
انه يستغرب وجودها هكذا بحجمها المعقول ووزنها الثقيل ،
كما لو كانت شيئا من الحكمة خلق بطريقة فريدة .. تراءت
له كأنها رغبات جمّة وحكمة هائلة قد لفت في هذا الخلق
الرمادي القديم ؟ زحزحت بالرغم عنها من سباتها المظلم العميق
وأخرجت الى الحياة بالقوة .. وشعر « سترانا » نحو هذا
الحجر بنفس الشعور والالتزامات التي يشعر بها الوالد عادة
نحو ولده .

وتملك « سترانا » مزيج من مشاعر السرور والوجل وهو
يضع يده فوق الحجر .. ومر يده على جانبه الداخلي . انه
خشن تأت فيه حييات صلبة مكنتزة .. ان سطح هذه الصخرة
الصماء مليء بالمفاجآت بالنسبة لـ « سترانا » الذي سيعمل
ازميله فيها فيفكك التواءات ويزيل الحبيبات عن الوجه الناصع
البياض الذي يرسمه للحجر في مخيلته .. هذا الوجه يظهر
له وكأنه وجه امرأة عفية جميلة تختال بقدها المكنتز أمامه
وصوتها الملائكي الرفيع ينساب لطيفا الى أذنيه ..

وراح الازميل يعمل في مواضع متعددة ورنين السعادة
ينبعث من لمسات شفرته الحادة للحبيبات الناعمة . أما « سترانا »
فراح يتوقع ضجيج ضحكة فرحة تنفجر حوله .. ومع توقعه
هذا كان يعي أن للحجر بيئته وحياته الخاصتين ، بيئة وحياة
يعرفهما « سترانا » جيدا . لهذا أخذ مطرقته وضرب بها على
قطع نافرة تلتصق بالحجر ، وقطعها منه .. ورسم في ذاكرته
تربيعة الحجر التي يمكنه تكوينها ، ثم تناول ازميله الحاد ثانية
وتناول المطرقة الصغيرة التي في كيسه وجعل يسوي التريعة كما
تخليلها .. كانت تتأثر ، في كل ضربة من مطرقته على الازميل ،
قطعا في أحجام قشور البيض المحطمة ، وظهرت من تحتها
أشكال مبتورة تتلأأ كأنها معالق صغيرة أحدثها الازميل بمروره
على سطح الصخرة .. واعتقد « سترانا » مقتبضا أن الحجر
الذي يريد قد تكون من هذه الصخرة التي لم تكن لتتكسر
بسهولة والتي ما فشت تتلأأ كالرخام ، خاصة بعد قطعها .

ورغم تجمهر الافكار المختلفة عليه اختار بكامل ارادته
أن يسير في طريقه هذا مسرورا ، دون وهن - متجردا باذلا

كل كيانه من أجله .

واستمر الازميل .. « طق .. طق .. طق .. طق .. طق .. »
في التهام التواءات وصارت الحبيبات تتلاشى تدريجيا من على
السطح لتكشف من تحتها عن الوجه الحقيقي للحجر . ومع
عمل الازميل ، أشاح « سترانا » ناظريه ، وشعر أنه غدا مقيدا
بصورة تلقائية بهذه الحصة وهذا العمل .. وأغمض عينيه على
الرؤيا المتجسمة في ذهنه ، على الشكل المرسوم في ذاكرته
والذي سيمنحه الحياة في يوم ما .. أغلق كلتا عينيه على حلمه
هذا مخافة أن يفلت منه وتضيع آماله فيه اذا ما أطلق العنان
لعاطفته في سرعة الاختيار .. بهذا الحجر فقط تكمن أفكاره
الحاضرة ، وبهذا الحجر توجد الرمال التي يمكنه أن يوارى
رأسه فيها ..

وهبت الريح أكثر فأكثر فمحت دفء الشمس من حوله
وصارت تعث بقميصه وتكرشه على ضلوعه ، وجعلته يرتجف
بفعل لمساتها الباردة لجسده .. انه الآن يشعر بوحشة أكثر ،
ان ثمة أرق يمزج نفسه .. فهو يؤمن أنه لا يستطيع عبور
ذلك الحد ، أو تجاوز حدود تلك التلال وتربيعة هذا الحجر
.. انه يشعر أنه مجبر في وضعه هذا بصورة مبرمة ، وهذا
ما يجلب عليه الحزن والشؤم ..
وتأوه « سترانا » من أعماقه ..

- اوه .. لقد جلبت لي الريح أحزانا كثيرة .

كم كان والده محوطا بكروم غنبه وبراميل النيذ ،
وبالابقار والتين وحقول الحنطة ؟! انه دائما يفكر في العثور على
جواب لهذا السؤال . كم كانت حياته حذرة ؟ وكيف استطاع
أن يستخلص من عيشه الشاق ذلك حياة مناسبة تكفل تحصينه
ضد الجوع - فيما لو داهمت المجاعة بلده - وضد الحرب ،
وحتى ضد الهزات الارضية ! .. لقد بنى بيته كالقلعة الحصينة
لمقاومة تلك الهزات . ولكن والده كان لا يعرف الطمأنينة ولا
الراحة في حياته .. لم يعرف ما هو السرور .. لقد وضع
ابنه تحت نظام الممول الشاق مذ تفتحت عيناه على الحياة - معتقدا
أنه السبيل الوحيد للكسب - لم يعطه قط وقتا للراحة .. لم
يسمح له بالذهاب الى المدرسة ، بل كان يمزق كل ورقة أو

مخطوطة يراه يلهو بها .. ولم يدعه يمارس أي لون من ألوان الفرح أو حتى التسلية والرياضة . أما « سترانا » فكان على عكس والده .. أرسل كلا ولديه الى المدرسة منذ اللحظة التي بلغا فيها سن التعليم ، وسمح لهما بمتابعة تعليمهما ، اذ تخرج كبيرهما وعمل مدرسا ، أما الآخر فما يزال يتعلم .. وقد ذهبا للجيش وأديا فروضهما لوطنهما أثناء الحرب .

وكلما توغل « سترانا » في التفكير بحياته كلما امتلأ قلبه بالمرارة من والده ، من كرومه ومن أرضه .. تلك المرارة جعلته يفكر في أشياء معينة هامة ومفيدة . ان الحياة كلها مخلوقة من تلك الأشياء ، وهذا هو ما كان يدفعه للاهتمام بكل ما يتعلق بالطبيعة والاختراعات التكتيكية .. كان متأثرا بما يصنعه أو يخترعه الرجال .. ان أقرب مثال لديه هو تلك الشفرة الحادة التي في الازميل والتي يفكر فيها بكل تموجات عقله ..

وسمع صوت صغير يجوب الفضاء حوله . وارتعد وهو ينظر الى السماء متلمسا مصدر ذلك الصغير .. انه صقر قذفت به زرقه السماء ليهبط هكذا فيشل هواجس « سترانا » . واستمر صغير أنف الصقر برهة حتى اذا ما عثر على كومة من الهشيم هبط على بعد عشر ياردات منها .. واختفى الطير بين الهشيم لفترة ما لبث بعدها أن صفق جناحيه وطار في الاعالي ، حاملا معه شيئا بمخليه .

وهنا شعر « سترانا » أن شيئا قد سلب منه ، كما ان كان واقعا تحت تحد عنيف .. كأن ذلك الصقر أخذ منه شيئا بالقوة أو ارتكب منكرا بحقه . وبكل كراهية وحنق تمنى بسترانا لو أنه استطاع قتل ذلك الطير .. لكنه استدار جانبا نحو القرية ، محاولا التخلص من هذا الشعور الغاضب - المزوج بكآبة أفكاره لساعة خلت ..

كانتا تسلقان المرتفع ببطء متوجهتان نحوه .. تسيران بين الهشيم والاعشاب الطويلة .

وتتابعت الضربات على الحجر فتعكس أصواتها على السطح وعلى أمواج الفضاء القريب دون أن تنفذ الى أعماق

الحجر ، أو دون أن يصدر عن تلك الأعماق شيء من هذه الاصوات .. انها فقط تعكس أنين الازميل على صفحة الحجر وهو يسويه قليلا قليلا ليفصله عن أصله الذي أوجده فيه الطبيعة ، ليصير هكذا أداة طيعة في يد الانسان يكونه كيف يشاء . استمرت ضربات الازميل « طق .. طق .. طق .. » وأخذت القشور الرقيقة تنزلق لتدل على أن سطح الحجر قد سوي وأنه غدا ناعما هادئا كسطح بحيرة هادئة ..

ألقى « سترانا » الازميل والمطرقة جانبا وتناول « المقياس » ليفحص به مستوى السطح ، ثم تناول « الزاوية » وفحص بها زوايا الحجر .. وراحت تتشكل في الفراغ حوله أشياء كأنها خيال جديد كاحتمال جبار .. ووضع قدمه اليسرى على الصخرة المكسورة بينما قدمه اليمنى تستريح على الحجر نفسه . وثابر على الضرب ، متجولا في مخيلته مع الزمن والكرة في صدره تتامى ، كما لو كانت تكافح لتكون الحياة بذاتها .

أشرف عمله على النهاية ، رغم أنه لم يكن من أعماقه يرغب في بلوغ النهاية .. وكما كانت النهاية المطلوبة بعيدة ! لا يعرف .. بل ولا يريد أن يعرف . ربما كانت النهاية محتمة قريبة ، أو بصورة أوضح ربما كانت كما يريد ها هو ، كانت الصخرة تنقلص دون أن تلين مغلقة ذاتها على ذاتها ، في عالم بعيد المال ، تقرب من كيانها .. تخال ذلك الكيان كأنه في خلود لا يمكن الاقتراب منه . انك تستطيع أن تحطمها وتستطيع أن تكسرها الى قطع صغيرة جدا ، ولكن ذلك لم يكن قط ما تريد الوصول اليه . ان الذي تريده هو أن تكشف عنها وأن تغمسها في الحياة . واليد .. اليد الكبيرة الصامتة طالما كدحت بألم لتثبت مبادئها ، تسيطر عليها النظرية المعروفة منذ أن تعرف الانسان بالحجر من أقدم الازمان ، عندما عرف الانسان كيف يستخدمه في حياته البدائية كأداة لحفظ الزيت وحسب .

ها قد صارتا على حافة قسم من جانب التل ، علق بملابسهما القش والأتربة .. كانت ناستا تسير خلف كفيها ، وعيناها تفحصان بالدهشة وبشيء من الرهبة ، كما هو حالها دائما في خشيتها على طبيعتها ..

لكن « سترانا » لم يتم بعد الجملة التي يقولها في أعماق

نفسه ، وكان تفكيره - ما يزال يحلق في مكان ما في البعيد - متعلقا تحت سحابة سوداء ومخترقا بواطن الحجر كأنه هدف آخر لم يصل ولم يتكامل بعد . وهناك رآها .. كانت تقف بيضاء مترنة ، تتطلع اليه دون أن تأتي بحركة .. لهذا فانه لم يشعر بهما حالما وصلته . واندفع « سترانا » بنفسه ليقترّب منها ، لينفذ الى أعماقها ليحددها في فؤاده ولتصير في متناول يده بحرية .. تماما كما يمتلك حرّيته . يريد أن يمتطي جناح الريح السحرية ويحلق فوق التلال والحقول ، وفوق الصخور والطرق ، ويذهب الى قريته ويخطو فوق جسرهما العريض بكامل حرّيته .. يريد أن يحلق فوق البحار على امتدادها أمام ناظريه ويسير في أي مكان يريد دون أن يعترض سبيله أحد ، أو يشيه عن عزيمته مخلوق .. انه لا يريد أن يلقي التحية على أحد ولا يقبل أن يرهّب أحدا ..

وفجأة أخذ « سترانا » يكتس ببصره التلال المحيطة به ، وانتقل منها الى الكروم والطرق كأنه يبحث عن شخص ما ، وما لبث أن عاد الى سابق وضعه .. مسح وجهه بيده وعاد الى حجره وضربه مرتين أو ثلاثا وقال يتساءل ببساطة ، على طريقة رجل الاعمال :

- لماذا كل هذا .. باكرا ؟ ..

وتطوّعت كفيّتا بالاجابة على تساؤله :

- لقد صار الوقت ظهرا ! ..

ونظر « سترانا » الى أعلى باتجاه الشمس قائلا :

- بلى .. صارت ظهرا ! ..

وطرح الازميل والمطرقة جانبا على السطح المهد من الحجر وفتح كلتا راحتيه وأرخاهما بجانبه وسرح نظره الى الاراضي أمامه .. تعلوه الرغبة في الذهاب الى هناك ، على أنه - على ما بدا - غير رأيه ، فتناول الاسفين وحشر طرفه تحت قطعة الصخر .

- هيا بكما ساعداني ! ..

- أوه .. ليس ذلك ثقيلًا يستدعي المساعدة ! .. وأردفت

« ناستا » تقول :

- اننا الاثنين نستطيع رفعه ! ..

فتطلعت اليها كفيّتا ساخرة :

- أنت تستطيعين ازاحة جبل بكامله .. حتى أعماق أعماق البحار لا تصل الى ركبتك ! ..

وتقدّمتا الى الحجر .. وأخذت الايدي الناعمة تلامس جزءا منه ، بينما راحت يدان أخريان خشتان تعبثان بالقسم الآخر .

- انه خفيف .. في خفة الزبد !

- لنبدأ بالخلخلة أولا ..

ومضى « سترانا » يصدر تعليماته وهو يضغط على الاسفين بكل قواه :

- لنستمر .. لنستمر ..

وتحرك الحجر فوق الحصى تاركا مكانه الاصلي .

- حسنا .. حسنا .. الآن أستطيع العمل في جوانب الاربعة ..

وعاد يكرر « حسنا » بخشونة باسمه ونظر الى أسفل قليلا في عيني « ناستا » تقفز كالمصفوزة ، باحثة عن مخبأ ! .. ونفض « سترانا » القبار عن يديه ثم مسح راحتيهما القذرتين :

- حسنا .. كل شيء على ما يرام .

وقالت كفيّتا :

- وهل بالامكان جعله أحسن مما هو عليه الآن ؟

وجلسوا جميعا على حافة الحفرة تحت ظل شجرة الدردار

التي نفذ شذى رائحتها العطرة عبر أنوفهم ..

قال « سترانا » :

- أخالكما تريدان تناول شيء من اللحم ، رغم أنكما لستما فأرتين ! ..

- نعم أريد .. لو أعطيتني ..

- هذا يعني أنك لا تنوين أخذها بالقوة ..

- أوه ! .. انني لا ولن أحلم في أخذها بالقوة ..

- ها .. ها .. أي طريقة مضحكة في أخذ الاشياء على

طريقتك هذه أيتها المرأة ؟

- حسنا .. ولكن لماذا تتعب نفسك ؟

- انني أعترف أنني لست جذابا ..

فانبرت « كفيّتا » تجييه :

- انها هي الجذابة .. وهي تفهم أكثر مما تتوقع ..

- أنا ؟ وهل أتوقع شيئا ؟ ..

واستدركت كفيّتا متراجعة :

- لست أدري ! ..

وأمسكت « ناستا » بزمام المزاح تريد تبرير سخابة صمت

كادت تظللهم :

- اذن .. أنت فأر !

فضحك « سترانا » وقال :

- طبعا .. طبعا .. وماذا نكون اذن ؟

وتناول « سترانا » من على قطعة خشب ملقاة بالقرب منهم ،

سكين الجيب التي يحتفظ بها منذ أيام الحرب ، وقطع رغيف

الخبز الى شطائر دائرية وفعل مثلها في اللحم ، ثم قال بأسلوب

شاعري :

والآن دعونا نأكل فلدينا الكثير من الود ..

الوقت الذي لا قيمة له - هذه الايام على الاقل - .

ان وقت الحرب لا يمكن أن يحسب وقتا ثينا ..

وقاطعته « ناستا » محاولة بعث الامل في نفسه :

- الطقس جميل .. أليس كذلك ؟ ..

فأجابها « سترانا » :

- وأي شيء لا ترينه جميلا يا ناستا ؟ !

مدت ناستا يدها اليسرى تحت فجوة ركبتيها بينما استند

مرفقها الابيض العاري على حافة فخذها .. وأدارت الجانب

الداخلي من مقدمة ذراعها باتجاه جسمها وهي تمسك بالخبز

واللحم في يدها ، ثم رفعتها الى فمها ، كان ظهرها مستقيما

وخصرها ناحلا .. وكانت تنورتها - وهي جالسة - تكشف

عن كل شيء .. ! .. كأنها لا تخبئ شيئا ، كأنها أباحت كل ما

تمتلكه ومنحته للريح اللطيفة .. وأفلتت من بين شفيتها ابتسامة

عريضة اذ عرفت لحظتها - أكثر من ذي قبل - ما كانت تتميز

وتتعم به ..

« وكفيّتا » هي الاخرى واضعة مرفقها على ركبتيها ، راحت

تمسح وجهها بأصابع يدها اليسرى ، محاولة اخفاء أسنانها

المتكسرة .. كان لديها الاستعداد للكلام طول الوقت ، تحدث

عن ثيابها الممزقة .. تتحدث عن القمح وعن كل شيء يخطر

ببالها ، رغم أنها تشعر أن الشخصين اللذين تتحدث اليهما لا

ينصتان لها الا مجاملة ، وينظران اليها على أنها مخلوقة تحاول

سرقة شيء يخصهما .. شيء لا يخص أحدا آخر ولكنه يخص

كليهما .. على أنها - « كفيّتا » - كانت تقذفهما بنظرة جانبية

طويلة من وقت لآخر ، ولكن ذلك لم يؤثر على روحها المرحّة

.. واستمرت تتحدث اليهما ، وقالت لهما كيف أن قطعة صغيرة

من الخشب - ملتصق بها خطاب - سقطت على منضدة مديرة

المدرسة وكم كان مخضرا ذلك الذي رماها ..

وسألها « سترانا » :

- وماذا يقول الخطاب ؟ !

- انه مكتوب بالايطالية ! ..

وتكلمت « ناستا » للإجابة عن « كفيّتا » بشكل أوضح ،

وصوتها ينبعث كرنين الجرس :

- أنهم المناضلون أولئك الذين كتبوا لها لكي ترحل من

القرية ..

- هم !! ضحكت « كفيّتا » لبرهة قصيرة ، لأنها كانت

هي أيضا تعرف فحوى الخطاب رغم أنها لم تقرأه البتة ..

والحقيقة هي أن القرية كلها كانت تعرف كل شيء عنه باستثناء

« سترانا » ..

- هذا حق ! .. يجب عليها أن تعود من حيث أنت ..

وأردف « سترانا » قائلا :

- انني أعرف أنكن شغوفات فقط بمطاردة الحظ والقبض

عليه ..

فردت « كفيّتا » :

- الحظ بأيدينا لبعض الوقت !

وتلتها ناستا تقول :

- ان المديرة امرأة جميلة ..

فعميت عليها « كفيّتا » ساخرة :

- بلى .. انها جميلة ،
فم البهاء ، هكذا .. وفتح لي ، فيها لتمطي دليلا على ما
قول ..

وقرعت « ناستا » أجراس ضحكها :

- ذلك صحيح .. انها تحاول اخفاء أسنانها بمض الشئ ..
قالت كيفيتا :

- انها بيضاء .. بيضاء فقط ، وهذا كل ما بها ..
- وسأل « سترانا » كيفيتا وسط تشجيع ضحكات « ناستا »
يما انهمك في تناول قرية النيذ فمسح فيها وقدمها لهما :
- ما رأيك فيما لو جاء رجال المقاومة الشعبية الآن وأخذوك
الى السجن ؟ ..

فأخذت « ناستا » زمام الاجابة بسرعة :

- حسنا .. دعهم يأتون ..

فطلعت اليها « كيفيتا » وصفت فخذها محتدة وقالت :

- سوف نعطيهم اياك ! .. دعهم يأتون ..

- أنا ؟ .. أنا لا أسمح لاي شخص بأن يزحزحني من
قريتي بمثل هذه السهولة ! ..

- اطمئني .. فهناك أناس يستطيعون رعايتك ..

عرفت « كيفيتا » بمعث هذا المرح الذي يلف « سترانا »
و « ناستا » انها - كيفيتا - في الوقت ذاته تقاسي من غزير
شهوتها ، ان شهوتها تمزقها وتعذب نفسها .. انها ترغب في
الأ تكون أقل منهما حظا ان لم تطمع بأكثر . وعلى قدر شهوتها
هذه كانت تمنى لهما أن يبقيا جنبا الى جنب ، لتبارك غبظتهما
الى الابد ..

وأدرك « سترانا » أن هذه الرأس الصغيرة كانت تعرف
الكثير عنهما .. عرف أن هاتين العنيتين - اللوزيتي الشكل -
كانتا تنفذان عميقا بطريقة لم يكن يستطيع فهم معانيها بأكثر
من الجدس ، تماما كما يفعل شخص لا يستطيع فهم تقاليد
قديمة . وعرفت « ناستا » أيضا مبلغ قرب « سترانا » منها ، كم
كان مرتبطا بها برباط حب صدوق .. الحب الذي يجمع بين
انسانين مسافرين معا في طريق واحد .. انها تعتبره في مرسى
يستطيع ارساء رغباته فيه في كل مرة يعود بها اليها - في كل

يوم .. وتعتبر نفسها المرسى الامين الذي يجعله يقلع بشراعه
نحو جمال « ناستا » الناعم الجذاب .. على أنه لا يستطيع التوغل
بها بعيدا .. انها تعرفه ومتأكدة مئة بالمئة أنه لا يستطيع الذهاب
بعيدا في علاقتهما ، لان ثمة طيبة ملائكية كانت بينه وبينها ،
شيء روحي ليس من شأنه الا أن يزيد الامور تعقيدا بالنسبة
لها ..

ونفضت « كيفيتا » متجهة الى صفحة التل وتسلفت شجرة
عرعر .. ثم عقدت ذراعيها أحدهما على الآخر ، وصارت في
وضع جعل كتفيها ورقبتها المائلة - نوعا ما - تظهر أكثر هزالا
من المعتاد . وقطبت « كيفيتا » حاجبيها وهي تنظر حولها الى
الصخور والهشيم والكروم ، والى غابات الزيتون وأشجار التين
المنتشرة أمامها .

★ ★ ★

بلغت الشمس أعالي السماء ، وراحت النسمات الباردة
العطرة تصفر من خلال شجر العرعر .. وسمعا في مكان ما
من حولهما صرير صرصار ، وهناك ، من خلال القسم الصخري
من أعالي التل الذي كان يجثم فيه كرم « باسكو » ذو الشكل
المعين ، تحيط به جدران ضخمة ، جاء صوت معول يعمل في
الصخر .. كان القميص الابيض للرجل الذي يعمل هناك
يظهر لهما من بين أشجار الزيتون ..

وتسارعت رياح الظهيرة الفتية النظيفة ، تأتي مبتهجة في
طريقها من البحر .. وأخذت تلامس الأشجار ، وتنحني لها
أوراق النباتات والاعشاب . وكانت تراقص أغصان الزيتون ،
كما لو كانت نشوى فرحة بمسيرها نحو الشرق ، الى احدى
ولائم ما بعد الظهيرة ..

ناعمان هما كعبا « ناستا » ..

رنان هو صوتها ..

عطر هو جسدها ..

ونفض « سترانا » على قدميه .. التقط حصيات مفلطحة

ملساء ، وراح يرميها في الوادي وكأنه ولد صغير ..